

سَيِّغْمُونْدُ فَرْوَيْد

مَسَاهِمَةٌ فِي تَارِيحِ حَرَكَةِ التَّحْلِيلِ لِنَفْسِيَّ

مَرْجَمَةٌ:
جُورْج طَرَابُيشِي



دَارُ الطَّلِيفَةِ - بَيْرُوت

مساہمت فی
تاریخ حرکت التحلیل النفسی

جميع الحقوق محفوظة
لدار الطليعة - بيروت
ص.ب ١١١٨١٢
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الاولى
آب (اغسطس) ١٩٧٩
الطبعة الثانية
ايار (مايو) ١٩٨٢

سینغونڈ فروید

مساہمت فی
تاریخ حرکت التحلیل النفسی

ترجمة:
جوز طرابیشی

دار الطلیعة للطباعة والنشر
بیدوت

هذه ترجمة كتاب

**Contribution A L'Histoire
Du Mouvement Psychanalytique
Par
Sigmund Freud
1914**

«الامواج تضربه ، لكنه لا يفرق» (١)

بودي ، في الصفحات التي تلي ، أن اقدم مساهمة في تاريخ الحركة التحليلية النفسية . وتتسم هذه المساهمة بطابع ذاتي ، أمل الا يقابل بدهشة من احد ، مثلما أمل الا يدهش احد من كوني اتكلم فيها عن الدور الذي لعبته بنفسي في هذا التاريخ . آية ذلك ان التحليل النفسي هو من صنمي : فعلى مدى عشر سنوات لم يكن احد غيري يهتم به ، وعلى مدى عشر سنوات كانت على رأسي تنهال الانتقادات التي بها عبّر المعاصرون عن نفورهم من التحليل النفسي وعن تبرمهم منه . بل يخيل الي انه بوسعي ان اجزم بأن ما من احد ، الى يومنا ، يعرف خيرا مني ما كنه التحليل النفسي، وما موضع اختلافه عن سائر أشكال استكشاف الحياة النفسية ، وما الذي يمكن ان يعنيه هذا المصطلح او ما الذي يناسبه ان يسمى بغير هذا الاسم .

١ . باللاتينية في النص : شعار مدينة باريس التي يرمز اليها مركب . -م-

لقد كانت سنحت لي الفرصة ، في عام ١٩٠٩ ، للكلام لأول مرة امام جمهور عام ، من على منبر جامعي اميركي ، عن التحليل النفسي (٢) ؛ وقد صرحت يومئذ ، ادراكا مني لما يمكن ان يكون لهذا الحدث من تأثير على الاهداف التي انشد ، انني لست انا الذي ابتكر التحليل النفسي ، وان هذا الفضل انما يعود الى جوزيف بروير (٣) Breuer ، فيما كنت انا ما ازال طالبا ، شاغلي اجتياز امتحاناتي (من ١٨٨٠ الى ١٨٨٢) . غير ان بعضا من الاصدقاء ممن يحدبون عليّ لفتوا انتباهي الى غلوي واسرافي في التعبير عن عرفاني بالجميل ، والى انه كان عليّ ، نظير ما فعلت في فرص سابقة ، ان اوضح ان «طريقة بروير التطهيرية» تشكل طورا تمهيدا من اطوار التحليل النفسي ، وان هذا الاخير راى النور يوم نحييت جانبا تقنية التنويم المغنطيسي لاحتل محلها

٢ - بشير فرويد هنا الى محاضراته الخمس التي القاها في جامعة كلارك الاميركية . راجع ترجمتنا لهذه المحاضرات في خمسة دروس في التحليل النفسي ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٩ .

٣ - جوزيف بروير : زميل لفرويد عمل معه في بداية حياته العلمية في مختبر الدكتور برك واشترك معه في عام ١٨٩٥ في تأليف كتاب بعنوان دراسات في الهستيريا . وكان بروير يكبره بأربعة عشر عاما ، وكان يستخدم التنويم المغنطيسي في علاج المرضى النفسانيين ، ثم ما لبث ان استعاض عنه بمنهج التطهير (كالاريسى) الذي يقوم على انتزاع الاسرار التي ترهق المريض من افكار وعواطف مكبوتة . ولكن فرويد لم يقف عند الحد الذي كان وصل اليه بروير ، فانفصمت عرى التعاون بين الاثنين ، ومضى فرويد في طريق التحليل النفسي وحيدا . وقد كتب عن بروير في «حياتي والتحليل النفسي» يقول : «لقد كلفني نمو التحليل النفسي صداقته . لم يكن من السهل عليّ دفع هذا الثمن لكن لم يكن في مقدوري ان اتفادى ما كان» . -٢-

تقنية التداوي الحر . والحق انه ليس امرا بلدي بال ان تكون بدايات التحليل النفسي مرتبطة بالطريقة التطهيرية او بالتعديل الذي ادخلته على هذه الطريقة ؛ ولئن اتيت هنا بذكر هذه النقطة التاريخية ، العديمة الاهمية ، فلان بعض خصوم التحليل النفسي لا يحجمون ، بالمناسبة ، عن الاعلان بأنه انما الى بروير ، لا الي ، يعود الفضل في خلق هذا الفن . غير انه لا بد لي من ان اضيف ان اسبقية بروير لا ينوه بها الا اولئك الذين يعزون قيمة ما الى التحليل النفسي ؛ اما اولئك الذين ينكرون عليه كل قيمة فلا يترددون في عزو ابوتّه الي بلا شريك . وعلى حد علمي ، فان القسط الوفير الذي أسهم به بروير في ابتكار التحليل النفسي لم يعد عليه ولو بنزر يسير من الشتائم وضروب الملامة التي هيلت عليّ . وبما انني اقررت منذ زمن بعيد بأن التحليل النفسي يتميز بقدرة لا تقاوم على اثارة سخط الناس وعلى دفعهم الى وقوف موقف المناقضة ، فقد انتهيت الى استنتاج مؤداه انه لا مانع يحول دون ان اكون الصانع الحقيقي لكل ما يميزه وما يجعل منه هو التحليل النفسي . وانه لطيب لي ان اضيف القول ان بروير لم يسع قط الى الخفض من شأن دوري في خلق التحليل النفسي الذي هو موضع تشنيع المشنّعين ، وانه لم يبد قط اية مساندة للمحاولات التي يبذلها في هذا الاتجاه اخصامي .

لقد سبق ان شرحت طبيعة اكتشاف بروير وعرضت مرارا وتكرارا ، مما يفنيني هنا عن كل مناقشة مفصلة بصدد هذا الموضوع . وسأعيد الى الازهان فقط ان الواقعة الاولى التي ينطلق منها هي ان اعراض الهستيريين ترتبط بمشاهد من حياتهم (رضات Traumatismes) ، طوتها يد النسيان بعد ان تركت فيهم وقعا عظيما ؛ وان ملاحظة هذه الواقعة قد املت طريقة علاجية تقوم على استحضار ذكرى تلك المشاهد ، تحت تأثير التنويم ، وعلى اعادة انتاجها (التطهير Catharsis) . لذا تراءى له انه يسعه ان يصوغ استنتاجا نظريا مؤداه ان الاعراض

المذكورة تنجم عن استعمال غير سوي لكميات تنبيهية غير محررة (تحويل Conversion) . وفي كل مرة تسنح فيها الفرصة لبروير للحديث عن التحول في مساهمته النظرية في الدراسات فير الهستيريا ، لا يتوانى عن ذكر اسمي بين قوسين ، وكان تلك المحاولة الاولى للتعليل النظري هي ملكي الروحي . واعتقد ان هذه الملكية لا تتعدى اللفظة ، اما التصور ذاته فقد انبثق في ذهنينا في آن معا وهو ملكنا المشترك .

معلوم ايضا ان بروير هجر ، بعد تجربته الاولى ، طريقته التطهيرية ، ولم يرجع اليها الا بعد مرور سنوات عدة ، يوم يخيل الي ، لدى عودتي من باريس حيث تابعت دروس شاركو (٤) ، ان من واجبي ان الح عليه والحف ليفعل ذلك . كان آئنذ موليا اهتمامه كله للطب الداخلي ، وكانت كثرة زبائنه تستغرق وقته كله . اما انا فما اصبحت طبيبا الا على كره مني ، وكان عندي سبب وجيه للغاية يحفزني على محاولة مد يد المعونة للناس المصابين بالامراض العصبية ، او على الاقل على محاولة النفاذ بقدر او بآخر الى طبيعة حالاتهم .

في بادئ الامر كنت قد وضعت ثقتي في المعالجة الفيزيائية؛ لكنني ما عثمت ان وجدت نفسي عاجزا ومفلول السلاح امام الخيبات التي سببها لي كتاب **المعالجة الكهربائية** ، بقلم و. إرب ERB ، الشر بالنصائح والارشادات . ولئن لم يخطر لي ببال يومئذ رأي موبوس Moebius القائل بأن نجاحات المعالجة الكهربائية انما مردها الى الایحاء ، فذلك لسبب فني منتهى

٤ - جان مارتين شاركو : طبيب فرنسي (١٨٢٥ - ١٨٩٣) ، اشتهر بإبحاله في مضمار الامراض العصبية ، ودرس عليه فرويد بين ١٨٨٥ و ١٨٨٦ ، وترجم له دروس في امراض الجهاز العصبي ، سنة ١٨٨٦ . -م-

البساطة : اذ لم احرز حى نجاحا واحدا . وقد تهيأ لي لوهلة من الزمن ان المعالجة بالايحاء اثناء التنويم العميق - وكنت قد حضرت جلسات لمثل هذه المعالجة لدى لييبو Liébault وبرنهايم (٥) Bernheim فشدهت لفاعليتها - تقدم لي تعويضا واسعا عن هجري لطريقة المعالجة الكهربائية . لكن السبر اثناء التنويم ، الذي علمني بروير قواعده ، مارس عليّ ، بفاعليته الآلية وبإشباعه فضولي العلمي ، جذبا اعظم بما لا يقاس من التحضير الايحائي ، الرتيب ، العنيف ، المنافسي للسبر بحصر المعنى .

اننا نعلم اليوم - وهذا من احدث ما توصل اليه التحليل النفسي - ان علينا ان نعطي مكانة الصدارة ، اثناء التحليل ، للصراع الراهن وللعلة المحددة للمرض . والحال ان هذا بالضبط ما فعلناه ، بروير وأنا ، منذ تطبيقاتنا الاولى للطريقة التطهيرية . فقد كنا نلفت مباشرة انتباه المريض الى المشهد الرضي الذي ظهر اثناء العرض ، وكنا نسعى الى اقتصاص اثر الصراع النفسي في ذلك المشهد والى اطلاق الشعور المكبوت من عقاله . وبنهجنا هذا النهج افلحنا في اكتشاف السيرة النفسية المميزة للأعصاب Névroses ، وهي السيرة التي اطلقنا عليها فيما بعد اسم النكوص Régession . وكانت تداعيات المريض ترتد من المشهد الذي نعمل على اعادة بنائه الى احداث نفسية سابقة ، وترغم التحليل الذي يبغى تصحيح الحاضر على الاهتمام بالماضي . وكان هذا النكوص يعود بنا القهقري الى الوراء اكثر فأكثر ، وبوجه عام الى زمن البلوغ ، على ما خيل لنا في بادئ الامر ؛ لكن بعض

٥ - لييبو وبرنهايم : طبيبان من مدينة نانسي الفرنسية كانا يعالجان المرضى بالايحاء التنويمي ، وقد درس عليهما فرويد لفترة وجيزة من الزمن سنة ١٨٨٩ ، وترجم لثانيهما كتابه عن الايحاء وتطبيقاته العملية ، سنة ١٨٨٨ . -م-

الاخفاقات وبعض الثغرات دفعت التحليل الى متابعة النكوص وصولا الى سنوات الطفولة التي لبثت الى ذلك الحين عصبية على كل سبر . وما عثم هذا التوجه ان غدا واحدة من السمات المميزة للتحليل . وقد تحقق لنا ان التحليل عاجز عن فك سر الحاضر من دون ارجاعه الى ماضٍ ليس بحد ذاته ممرضاً *Pathogène* ، ولكنه هو الذي يضي مع ذلك على الحدث اللاحق طابعه الممرض . على ان اغراء التمسك بالعلة الراهنة المعروفة كان شديدا الى حد ما امكنني معه الافلات من شباكه طيلة سنوات عديدة اخرى . وائناء معالجة (سنة ١٨٩٩) المريضة المعروفة باسم «دورا» (٦) ، كنت اعرف المشهد الذي تسبب في ظهور المرض الراهن . وكنت قد حاولت مرارا وتكرارا ان اضع في متناول التحليل ذلك الحدث النفسي من دون ان احصل قط ، بالرغم من اوامري المباشرة ، على شيء آخر غير الوصف المجمل والمليء بالثغرات عينه . وانما بعد التفافة طويلة ، قادتنا القهقري الى ما قبل الطفولة الاولى للمريضة ، وجدنا انفسنا وجها لوجه امام حلم امكن ، بواسطة تحليله ، استعادة تفاصيل المشهد المنسية ، وهذا ما هيأ الامكانية لفهم الصراع الراهن ولحلله معا .

هذا المثال وحده يكفي لبيان ما الاخطاء التي يعرض المرء نفسه للوقوع فيها فيما لو اخذ بالنصيحة التي اشرنا اليها اعلاه ، وما مدى إذنا به بحق التقدم العلمي فيما لو اعمل النكوص في التقنية التحليلية .

نشأ اول خلاف في وجهات النظر بيني وبين بروير بصدد

٦ - دورا : اسم مستعار اطلعه فرويد على فتاة في الثامنة عشرة عالجها من آفة عصبية ، وسجل تفاصيل العلاج في نص جمل عنوانه *الحلم والهستيريا* . وقد نشره في وقت لاحق (سنة ١٩٠٥) بعنوان *نبذة من تحليل اصابة هستيرية* .

مسألة مرتبطة بالاولية النفسية الباطنة للهستيريا . فقد كان يحبد نظرية ما تزال فيزيولوجية ، ان جاز القول ، مؤداها ان علة الانفصام النفسي للمريض بالهستيريا انعدام الاتصال بين شتى الحالات النفسية (او كما كنا نقول آنئذ بين «شتى حالات الوعي») ؛ وعلى هذا فقد صاغ فرضية «الحالات النوامية» التي تقتجم منتجاتها «الوعي اليقظ» لتسلك فيه مسلك الاجسام الغريبة . ولما كنت اقل تزمتا من وجهة النظر العلمية ، وارتاب في ان المسألة مسألة ميول ونوازع مشابهة لميول الحياة اليومية ونوازعها ، فقد رايت في الانفصام النفسي عينة معلولا لسيرورة اقضاء وإزاحة اطلقت عليها يومئذ اسم سيرورة «الدفاع» او «الكبت» . وقد حاولت جهدي ان ابقى على تينك الاوليتين واحدهما بجانب الاخرى ، لكن بما ان التجربة كانت تهديني على الدوام الى الشيء نفسه ، لذا لم اتأخر عن معارضة نظرية الحالات النوامية بنظريتي في الدفاع .

غير انني متأكد من ان هذه المعارضة لم يكن لها من ضلع في الانفصال الذي ما عثم ان وقع بيننا . فقد كان وراء هذا الانفصال اسباب أعمق وأبعد غورا ، لكنه حدث على نحو ما أمكنني معه لا التنبه له من البداية ولا فهمه الا في زمن لاحق وطبقا لبيئات لا يتطرق اليها الشك . تذكرون ولا بد ان بروير كان يقول عن مريضته المشهورة الاولى ان العنصر الجنسي لديها يمثل درجة من التطور غير كافية على الاطلاق وانه لم يسهم قط من قريب او بعيد في الفنى الملحوظ لجدولها المرضي . ولطالما استغربت الا يكون قد خطر للنقاد ان يقيموا - اكثر مما فعلوا - مقابلة بين تصريح بروير ذاك وبين تصوري الخاص للاتيولوجيا الجنسية للأعصبة ، وما زلت الى يومنا هذا أجهل ان كان هذا الاغفال قد أملاه عليهم حسن التقدير او قلة الانتباه . ولو اعاد المرء قراءة ملاحظة بروير على ضوء التجارب المكتسبة خلال العشرين سنة

الاحيرة ، لوجد ان كل تلك الرمزية الممثلة بالثعابين (٧) ، وبنوبات التخشب ، وبشلل الذراع ، شفاة الى حد لا مستزاد عليه ، ولو ربط الموقف بالسريير الذي كان الاب المريض ممددا عليه لحصل على تأويل للاعراض يتبخر معه كل شك بصدد مدلولها . وبذلك يتوصل الى تكوين فكرة عن دور الجنسية Sexualité في الحياة النفسية لتلك الفتاة مفارقة تماما لفكرة طبيبها . لقد كان في تناول بروير ، من اجل شفاء مريضته ، «نتاج» ابحاثي مكثف ، ننتاج نستطيع ان نرى فيه بالتحديد نموذجا اوليا لما نسميه بـ «التحويل» (٨) . ولي من الاسباب الوجهية ما يحملني على الاعتقاد بأن بروير ، بعد ان ازال الاعراض جميعا ، قد وجد نفسه ، ولا بد ، امام دلائل جديدة تؤيد التحفيز الجنسي لذلك التحويل ، لكنه اوقف سبره عند هذا الحد كما لو امام «حادث مزعج» لانه ما استطاع فهما للطابع العام لهذه الظاهرة اللامتوقعة . وهو لم يطلعني بصورة مباشرة على شيء بهذا الخصوص ، لكنه قدم لي ، في اكثر من مناسبة ، نقاط استدلال كافية لتبرير هذا الافتراض . ويوم تبينت بصورة نهائية التصور عن الدور الاساسي الذي تلعبه الجنسية في جبرية الاعصبة ،

-
- ٧ - كان بروير قد شرع سنة ١٨٨٠ بمعالجة فتاة مهترة اسمها آنا. ا (واسمها الحقيقي مارتا باينهايم) ، وكان من جملة الاحلام التي رأتها انها كانت جالسة بقرب سريير والدها المريض ، فرأت ثعبانا اسود يخرج من الحائط ويدنو من المريض ليعضه . وارادت ان تطرده ، ولكنها كانت كالمشلولة . وكانت ذراعها اليمنى ، التدلالية فوق الكرسي ، شبه مخدرة ، وحين نظرت اليها تحولت الاصابع الى ثعابين صفرة ذات جماجم (الافافر) . -م-
- ٨ - التحويل Transfert : اوالية نفسية يحول المريض العصابي من خلالها جملة من المشاعر والمواطف الايجابية او السلبية (حب او كراهية) نحو المحلل او الطبيب الذي يعالجه . -م-

اصطدمت من جانبه تحديدا بردود الفعل الاولى لذلك الكدر في
المزاج ولذلك الاستهجان اللذين باتا مألوفين لدي فيما بعد ، مع
انني ما كنت ، في الفترة الزمنية التي اتحدث عنها ، لاتوقع ان
يلاحقاني طول حياتي كالقدر .

ان التحويل الجنسي ، ايا يكن لونه ، وسواء اكان وديا ام
عدائيا ، واقعة ملحوظة دوما اثناء علاج العصاب — مهما تكن
طبيعته — من دون ان يرغب فيها او يحض عليها اي طرف من
الطرفين المتواجهين . وواقعة التحويل الجنسي هذا قد بدت لي
على الدوام بمثابة دليل لا يدحض على الاصل الجنسي لقوى
العصاب الحافزة . وهذا الدليل لم يحظ بعد بكل الانتباه الذي
يستأهله ، ولم يحمل قط على محمل الجد الكافي ، اذ لو حصل
ذلك لكان الراي بصدد هذا الموضوع انعمد له الاجماع في هذه
الساعة . اما انا فقد اعتبرته على الدوام قاطعا ، مثله في ذلك
(وربما اكثر) مثل العديد من المعطيات الاخرى التي يمدنا بها
التحليل .

لقد كان ايماني بانني اكافح في سبيل فكرة جديدة ومبتكرة
هو بمثابة عزاء لي عن سوء الاستقبال الذي قوبل به تصوري عن
المنشئ الجنسي للاعصبة ، وهذا حتى في حلقة اصدقائي الضيقة
(اذ ما عتمت دائرة من الفراغ ان تشكلت حول شخصي) . بيد
ان ذكريات محددة استيقظت في ذات يوم لتعكر علي صفوي ،
ولتكشف لي في الوقت نفسه بعض التفاصيل المثيرة للغاية بصدد
الكيفية التي يتم بها نشاطنا الخلاق وبصدد طبيعة معرفتنا .
فالفكرة التي اخذت مسؤوليتها على عاتقي لم تكن بحال من
الاحوال فكرة شخصية . وانما ادين بها لثلاثة اشخاص كانت
آراؤهم تحظى مني بأعظم الاحترام : بروبر نفسه ، وشاركو ،
والاختصاصي في الامراض النسائية في جامعتنا ، شروباك الذي
هو من المع اطباءنا في فيينا . فقد اورثني هؤلاء الرجال الثلاثة

تصورا ما كان ملكا لهم بحصر معنى الكلمة . وقد انكر اثنان منهم هذا الارث ؛ اما ثالثهم (الاستاذ شاركو) فقد كان سيحذو حذوها فيما لو أتيح لي ان اتقيه ثانية . وهذه الموارث المتماثلة ، التي تمثلتها من دون ان أفهمها ، هي التي تناومت فيّ لسنوات عديدة لتستيقظ ذات يوم في صورة تصور مبتكر ، كان لا فضل فيه لاحد غيري .

لقد رافقت ذات يوم ، وأنا طبيب مستشفيات غرب ، بروير في نزهة عبر المدينة ، فاذا بسيد يعترض سبيله ويطلب اليه بالحاح ان يكلمه . تأخرت عنهما ، ولما انتهت محادثتهما رجعت بروير نحوي وأفادني بطريقته المحببة في الافضاء بالمعلومات ، ان الرجل هو زوج مريضة وأنه أطلعه على أخبارها . وأضاف يقول ان المرأة كانت تتصرف في المجتمع تصرفا غريبا حمل ذوبها ، وقد عدوها مريضة عصبية ، على ان يعهدوا بها لعنايته . وختم قائلا ان الامر هنا ايضا يتعلق بأسرار مخدع النوم . فسألته ، وقد اخذتني الدهشة ، ما قصده بقوله هذا ؛ فشرح لي عندئذ ما يعنيه بالضبط ، مستبدلا عبارة «مخدع النوم» بعبارة «الفراش الزوجي» ، وأبدى عجبه لاستغرابي التعبير الاول .

بعد بضع سنوات حضرت حفل تكريم لشاركو . كنت واقفا على مقربة من الاستاذ الجليل ، وكان بروير لبروارديل Brouardel واقعة ، مثيرة للاهتمام جدا في أرجح الظن ، من الوقائع التي مرت به في ممارسته . وما كنت أصفيت بانتباه الى بداية القصة ، لكنها ما عثمت ان اثار اهتمامي حتى شدت انتباهي كله . كان موضوعها زوجين من الشرق البعيد ؛ الزوجة تعاني وتكابد الامرّين ، بينما الزوج عنيّن او اخرق تماما . وسمعت شاركو يردد : «حاول ، حاول وستنجح ، أؤكد لك» . وأعرب لبروارديل على ما يبدو - وكان أخفت صوتا - عن دهشته من ان تكون أعراض كاعراض المرأة المعنية قد ظهرت في مثل تلك الظروف . وبالفعل ، اجابه شاركو بحدة : «بلى ، في مثل هذه

الاحوال ، المسألة تناسلية دوما ... دوما ... دوما» . وفيما هو يردد ذلك صلب ذراعيه على صدره وطفق يتنطط بحيويته المعهودة . اذكر انني لبثت مذهولا لبضع ثوان ، ولما تماكنت امري طرحت على نفسي هذا السؤال : «ما دام يعلم ذلك ، فلما لم يقله قط ؟» . لكنني سرعان ما نسيت هذا الانطباع ؛ واستغرق تشريح الدماغ والاصطناع الاختباري للشلل الهستيري من جديد انتباهي كله .

بعد ذلك بعام واحد - وكنت ما ازال استاذ خاصا بالامراض العصبية (٩) - بدأت بامتحان الطب ، وانا جاهل كاي جامعي غرّ تعمير الآمال فؤاده بعلم منشأ الاعصبة واسبابها . وذات يوم رجاني شروباك ان اتولى معالجة احدى مريضاته بالنظر الى عدم توفر الوقت له للاعتناء بها بعد ان صار استاذًا بكرسي . وهرعت الى المريضة ، ووصلت اليها قبله ، وعلمت انها تعاني من نوبات حصرية لا تعليل لها ولا تستطيع لها تسكينها الا اذا علمت بالضبط اين طبيبها موجود في كل آن من آناء النهار . ووصل شروباك بدوره ، وانفرد بي ليعلمني ان حصر المريضة متأت من كونها ما تزال عذراء رغم مرور ١٨ سنة على زواجها ، وذلك لان زوجها مصاب بعنة تامة . واضاف قوله : في مثل هذه الاحوال لا يبقى امام الطبيب الا ان يغطي بما له من سلطة وهيبة على المأساة العائلية ، وان يكتفي بهز كتفيه اذا ما تناهى الى علمه ان الناس تصدر بحقه تقييمات من هذا النوع : «انه ليس أشطر من غيره ، فهو لم ينجح في شفاء المريضة رغم انه يعالجها منذ سنوات عديدة» . فهذا الداء ليس له الا دواء واحد ؛ ونحن نعرفه جيدا ،

٩ - استاذ خاص Privat - Docent : استاذ جامعي حر في ألمانيا

يتقاضى مكافأته من الطلاب مباشرة . -م-

لكننا ، ويا للأسف ، لا نستطيع وصفه . وهو : RP. Penis
! Normalis Dosim Repetatur (١٠) .

ما كنت قد سمعت قط بمثل هذه الوصفة ، ووجدتني بيني
وبين نفسي ألوم راعي على مجونه .

انني اذ ألح على هذا الاصل الجليل للتصور الذي ناله ما
ناله من التحقير والتشنيع ، فليس ذلك كيما ألقي تبعته على عاتق
الآخرين . وأنا اعلم ان التعبير عن فكرة ما مرة أو مرات عدة في
شكل نبذة سريعة شيء ؛ وان حملها على محمل الجد ، بمعناها
الحرفي ، وتطويرها من خلال تفاصيل شتى ، مناقضة لها في
كثير من الاحيان ، وانتزاع مكان لها بين الحقائق المعترف بها ،
شيء آخر . وهذا فارق يشبه الفارق بين غزل خفيف وزواج
مستقيم ، بكن ما يترتب عليه من واجبات ومصاعب . يقول
الفرنسيون بسداد : «تزوج افكار فلان ...» .

بين العناصر الاخرى التي قيض لها ، بفضل أبحاثي ، ان
تنضاف الى الطريقة التطهيرية لتحويلها الى تحليل نفسي، ساخص
بالذكر : نظرية الكبت والمقاومة ، وتصور الجنسية الطفلية ،
وتأويل الاحلام والتوصل بها لمعرفة اللاشعور .

اما فيما يتعلق بنظرية الكبت ، فقد وصلت اليها بكل تأكيد
بجهودي الخاصة ، من دون ان يوحى الي أي مؤثر بامكانياتها .
وعليه ، داخلني الاعتقاد لزمن طويل بأنها مبتكرة ، الى ان وضع
أوتو رانك ذات يوم تحت ناظري "مقطعا من العالم كإرادة وتصور،
يحاول فيه شوبنهاور ان يجد تفسيراً للجنون (١١) . وما يقوله
الفيلسوف في هذا المقطع حول ما يساورنا من نفور من

١٠ - باللاتينية في النص : «من طبيعة القضيبي الطبيعي ان يساود

الكرة » . -م-

١١ - المجلة المركزية للتحليل النفسي ، ١٩١١ ، ١م ، ص ٦٩ .

الاعتراف بهذا الجانب المؤلم أو ذلك من جوانب الواقع يتفق كل الاتفاق مع فكرة الكبت ، كما أتصورها ، الى حد يبيح لي ان اكرر القول مرة اخرى بأنني لا ادين باكتشافي الا لنقص مطالعاتي . ومع ذلك ، فقد قرأ غيري هذا المقطع واعد قراءته من دون ان يتوصل الى الاكتشاف المذكور ، ولعل الشيء نفسه كان سيحدث لي لو وجدت في نفسي ، في شبابي ، مزيدا من الميل الى القراءات الفلسفية . وقد ضننت على نفسي فيما بعد بتمعة قراءة نيتشه، وقد فعلت ذلك وأنا على أتموعي بأسباب استنكافي: فقد كان مقصدي الا اقع تحت أي تأثير خارجي وأنا أدون وأطور الانطباعات التي يمدني بها التحليل النفسي . وعليه ، فأنني أعلن استعدادي ، عن طيب خاطر ، للتخلي عن كل دعوى بالاسبقية في الحالات - وهي كثيرة - التي يكون فيها كل دور الأبحاث التحليلية النفسية الشاقة تؤكد صحة كشف الفلاسفة الحديثة .

ان نظرية الكبت هي الأس الذي يقوم عليه بيان التحليل النفسي ؛ وهي الجزء الأكثر جوهرية منه وان كانت لا تمثل سوى التعبير النظري عن تجربة يمكن للمرء تكرارها بقدر ما يرغب كلما اخضع للتحليل مريضا عصابيا من دون ان يلجأ الى التنويم . ففي لحظة محددة يصطدم بمقاومة تعارض العمل التحليلي ، اذ يتذرع المعالج بفجوة في الذاكرة ليظل فاعلية ذلك العمل . ولو لجأ الطبيب الى التنويم لما أفلح الا في اخفاء تلك المقاومة وحجبها ، ولهذا فان تاريخ التحليل النفسي بحصر المعنى لم يبدأ الا يوم تلهو التجديد التقني التمثل في هجر التنويم . والتأويل النظري المتوافق بين تلك المقاومة وبين نسبة ما يقود حتما الى تصور النشاط النفسي اللاواعي ، وهو التصور الذي يقول به التحليل النفسي والذي يختلف ، على كل حال ، اختلافا بينا عن تأملات الفلاسفة بصدد اللاشعور . وعليه ، يمكن القول ان النظرية التحليلية النفسية تمثل محاولة لتعليل ملاحظتين غريبتين

ولامتوقعتين يلاحظهما المرء حينما يسعى الى رد أعراض العصابي المرضية الى مصادرها ، اي الى خبرات طارئة في حياة المريض السابقة : فعني بهما التحويل والمقاومة . وكل توجه يتخذ من هاتين الواقعتين نقطة انطلاق له يحق له تسمية نفسه تحليلا نفسيا ، حتى ولو خلس الى نتائج مغايرة لتلك التي حصلت عليها انا نفسي . بيد ان من يتصدى لجوانب اخرى من المشكلة ويضرب صفحا عن هاتين المقدمتين ، لن يكون بوسعهم ، اذا ما اصر على اعتبار نفسه محللا نفسيا ، ان يفلت من تهمة تعكير حق الملكية بمحاولة التقليد الايمائي .

انني لن اتردد في رفع صوتي بقوة احتجاجا على كل من قد يعن ببالة ان يزعم ان نظرية التحويل ونظرية المقاومة مقدمتان للتحليل النفسي ، لا نتيجتان له . فالتحليل النفسي مقدماته ، لكنها ذات طابع سيكولوجي وبيولوجي بوجه عام ، ولا مجال للحديث عنها . اما نظرية الكبت فهي نتاج للعمل التحليلي ونتيجة محرزة بوسائل مشروعة وتمثل الخلاصة النظرية لتجارب لا تقع تحت حصر . وقد توصلنا الى انجاز مماثل ، وان متأخر ، في تصور الجنسية الطفلية الذي ما ورد له ذكر خلال السنوات الاولى من تلمس التحليل النفسي لطريقه . والواقعة الوحيدة التي وقعت من البداية تحت المراقبة هي وجوب اعتبار الخبرات النفسية الراهنة معلولات للماضي . لكن «الباحث كثيرا ما يهتدي الى اكثر مما كان يريد الاهتداء اليه» . وهكذا وجدنا انفسنا ننساق الى ازمة اناى فاناى من الماضي ، وتراءى لنا في وقت من الاوقات انه في مستطاعنا التوقف عند البلوغ ، اي زمن اليقظة التقليدية للميول الجنسية . بيد ان هذا الامل كان باطلا ، اذ ان اقتفاءا للآثار قادنا الى ما قبل ذلك العهد ، وصولا الى الطفولة ، بل الى السنوات الاولى من هذه الطفولة . وفي اثناء ذلك وجدنا لزاما علينا ان ندلل خطأ كان يمكن ان يكون قاضيا بالنسبة الى ذلك الاتجاه العلمي الفتى . فتحت تأثير النظرية الرضية للهستيريا،

ذات الصلة بتعاليم شاركو ، كنا نجد في أنفسنا نزوعا قويا الى عزو واقع ومدلول اتيولوجيين (١٢) الى روايات المرضى التي يرجعون فيها أعراضهم الى تجارب جنسية كانوا موضوعها السلبي في ابان السنوات الاولى من طفولتهم ، وبعبارة اخرى ، الى ما جرت العادة على تسميته بـ «التفريز بالقصر» . ولما اضطررنا بعد ذلك الى العزوف عن هذه الاتيولوجيا ، لعدم مطابقتها للواقع ولتناقضها مع البيّنات الثابتة ، وقعنا في حيرة شديدة من امرنا. فهل اتبع التحليل الذي افضى الى هذه الرضات الجنسية الطفلية طريقا خاطئا اذن ، بعد ان اتضح ان هذه الرضات تفتقر الى اي اساس واقعي ؟ ما كنا ندري بأي مستند نتمسك . وكنت على استعداد للتضحية بكل العمل الذي انجزته ، على نحو ما فعل سلفي الموقر بروير في أعقاب اكتشافه غير المرغوب فيه . ولئن لم افعل ذلك ، فذلك في الاغلب لانه لم يكن لي من خيار ، ولم اكن املك أن أسلك اية وجهة اخرى . وفي نهاية المطاف قلت بيني وبين نفسي انه ليس من حقي ان اترك عزيمتي تثبط لمجرد ان الآمال التي كنت أعلل النفس بها لم تتحقق ؛ وانه اولى بسي بالاحرى ان أعيد النظر في هذه الآمال عينها . فحين يربط المهسترون أعراضهم برضات مختلفة ، فان الواقعة المستجدة يمثّل على وجه التحديد في كونهم يتخيلون تلك المشاهد تخيلا ، مما يرغمنا على ان نأخذ بعين الاعتبار الواقع النفسي والممارسة على حد سواء . وما عثمت ان استخلصت من ذلك ان الفرض من تلك الخيالات اخفاء النشاط الايروسى الذاتي للطفولة الاولى ، وإحاطته بهالة ما ، ورفعته الى مستوى اعلى . وما ان تأكدت لي هذه الواقعة ، حتى ابصرت بحياة الطفل الجنسية تجري على

مراى منى بكل اتساعها .

اخرا ، فان هذا النشاط الجنسي لسنوات الطفولة الاولى كان يمكن ايضا ان يعد تظاهرا للجبلة الخلقية Constitution Congénitale . فقد كان كل شيء يبيع لنا الافتراض بان الاستعدادات الخلقية والتجارب النفسية اللاحقة تتراكب هنا لتؤلف كلا واحدا غير قابل للقسمة : فمن جهة تحول الاستعدادات الخلقية الانطباعات البسيطة الى رغبات ، الى مصادر اثار ونقاط تثبيت ، مع انه لولا الاستعدادات الخلقية لبقيت الانطباعات ، ذات الطابع العادي بوجه عام ، بلا مفعول ؛ ومن الجهة الثانية تستحضر التجارب النفسية اللاحقة عناصر من الاستعداد الجبلي ، مع ان هذه العناصر كانت ستظل غافية لآمد طويل من الزمن او ما كانت لتتظاهر على الاطلاق لولا تلك التجارب . وابراهيم هو الذي كان (١٩٠٧) صاحب القول الفصل في مسألة الايتولوجيا الرضية ، بإيضاحه ان خصوصية تجارب الطفل الجنسية ، اي صفتها الرضية ، ذات صلة بالطبيعة الخاصة لجبته الجنسية (١٢) .

كانت ملاحظاتي بصدد جنسية الطفل لا تستند في بادئ الامر الا الى نتائج التحاليل المجرأة على راشدين والمتوغلّة الى خبرات نائية زمنيا من حياتهم الماضية . ولم تسنح لي الفرصة يومئذ للقيام بمعاینات مباشرة على الطفل . ولهذا كان ظفر عظيم

13 — Klinische Beiträge Zur Psychoanalyse Aus Den Jahren 1907 - 1910 . (مساهمات سريرية في التحليل النفسي عن)

السنوات ١٩٠٧ - ١٩١٠ .

Internat. Psychoanalytische Bibliothek, Band 10, 1921.

(المكتبة الدولية للتحليل النفسي ، المجلد ١٠ ، ١٩٢١) .

لي حين افلحت ، بعد انقضاء عدد لا بأس به من السنوات ، في الحصول على توكيد لصحة معظم استنتاجاتي عن طريق اخضاع اولاد صغار جدا للملاحظة والتحليل المباشر . بيد ان ما افسد علي الى حد ما هذه الفرحة فكرة تسلطت علي ومؤداها ان الامر لا يعدو ان يكون في خاتمة المطاف امر اكتشاف يخلق بمن اكتشفه ان يخجل من نفسه . وكلما رحت اتابع ملاحظة الاطفال واتعمق فيها ، كانت الواقعة المذكورة تتبدى لي بمزيد من الوضوح والفهم ، فكنت ازداد استغرابا لما جشمتنا انفسنا من مشقة حتى لا نتيئنها .

حتى يصل المرء الى مثل هذا الاقتناع الاكيد بوجود الجنسية الطفلية وبأهميتها ، فلا بد له ان يتتبع طريق التحليل ، وان يعود القهقري من اعراض الاعصبة وغرائبها الى منابعها الاخيرة ؛ فاذا ما اكتشف هذه المنابع حصل على تفسير لما هو قابل للتفسير واقتدر على تعديل ما هو قابل للتعديل . وانا ادرك انه من الممكن المرء ان يصل الى نتائج اخرى اذا ما بدا ، كما فعل ك.غ. يونغ مؤخرا ، بتكوين فكرة نظرية لنفسه عن طبيعة الفريزة الجنسية ، اسعى من ثم الى فهم الحياة الطفلية على ضوء هذه الفكرة . فمثل هذه الفكرة لا يمكن الا ان تكون عسفية او ان تستجيب لاعتبارات لا دخل لها بالموضوع قيد البحث ؛ ومن هنا يجازف المرء بان يجد نفسه في موقف غير مطابق في المضمار الذي يطبقها فيه . ولا ريب في انه ستواجهنا ، حتى لو اتبعنا الطريق التحليلي ، صعوبات ونقاط غامضة فيما يتعلق بالجنسية وصلاتها بحياة الفرد الشاملة ؛ لكن ليس بالتأملات المجردة سنفلح فسي تذلل هذه الصعوبات وايضاح هذه النقاط الغامضة . وخير ما نفعله في هذه الحال ان ننظر ان تأتينا الملاحظات والمعانيات المجرأة في مضمار آخر بحل آخر الالغاز .

سألزم جانب الاقتضاب فيما يتعلق بتأويل الاحلام . فقد كان هذا التأويل النتيجة الاولى ، ان صح القول ، للتجديد التقني

الذي تبنيته ، يوم قر قراري ، نزولا عند حدس مبهم ، على ان
استبدل التنويم بالتداعي الحر . وليس الفضول العلمي هو اول
ما دفعني الى طلب فهم الاحلام . وعلى حد علمي ، لم يكن لأي
تأثير دور في توجيه اهتمامي هذا الاتجاه ، كما لم يتح لي ان
استشف اية نتائج خصبة في هذا المضمار . وحتى قبل قطع
صلاتي ببروير ، ما تسنت لي الفرصة لاعلامه ، ولو باقتضاب ،
بانني شرعت بتأويل الاحلام . وبالنظر الى الكيفية التي توصلت
بها الى الاكتشاف الاخير هذا ، فان رمزية لغة الاحلام لم تتكشف
لي الا في آخر المراحل ، وذلك لان تداعيات الحالم لا تعلمنا الا
النزr اليسير عن الرموز . ولما كنت قد حافظت على عادة دراسة
الاشياء مباشرة ، قبل ان انهل العلم من الكتب ، فقد امكنتني ان
اقرر وجود رمزية الاحلام قبل ان يجذب عمل شرنر Scherner
انتباهي اليها . لكن في وقت لاحق فحسب امكن لي ايضا ان
اقدر وسيلة الاحلام هذه في التعبير حق قدرها ، وهذا تحت
تأثير أبحاث ف. شتيكل Stekel الذي جرت تنحيته في
خاتمة المطاف عن معسكر التحليل النفسي على الرغم مما اسداه
اليه من خدمات جلّى . كذلك لم اكتشف الا بعد انقضاء بضـع
سنوات اخرى الروابط الوثيقة القائمة بين التأويل التحليلي
النفسي للاحلام وبين فن تفسير الاحلام الذي كان رائجا للغاية في
العصور القديمة . اما الشطر الاهم والمبتكر من نظريتي فـي
الاحلام ، أعني الشطر الذي يربط التحريفات الطارئة في الاحلام
بصراع باطني ، وبعبارة اخرى ، الشطر الذي يرى في هذه
التحريفات ضربا من النقص في الصراحة الداخلية ، فقد التقيته
لاحقا لدى مؤلف غريب عن الطب ، ولكن ليس عن الفلسفة ، لدى
المهندس الشهير ج. بوبر Popper الذي نشر ، تحت اسم
لنكوس Lynkeus المستعار ، تخيلات انسان واقعي فـي
عام ١٨٩٩ .

لقد وجدت في تأويل الاحلام مصدر عزاء وتشجيع في ايام السنوات الاولى من عملي التحليلي ، وقد كانت من اصعب السنوات واشقتها على النفس ، اذ كان عليّ فيها ان اجمع بين العيادة والتقنية وعلاج الاعصبة ، وكنت اخشى ، وانا ما انا فيه من عزلة ، وإزاء المشكلات العديدة التي كانت تلاحقني والصعوبات البالغة التعقيد التي كنت اواجهها ، ان أضل طريقي وان افقد ثقتي بنفسي . وكان عليّ في كثير من الاحيان ان انتظر مدة لامتناهية الطول من الزمن حتى يتجلى لدى المريض ما يثبت صحة مسلماتي التي مؤداها ان العصاب لا بد ان يفدو قابلا للفهم بواسطة التحليل ؛ غير ان الاحلام ، التي يمكن اعتبارها مماثلة للأمراض ، كانت تقدم لي بصفة شبه مستديمة ، وفي الاحوال جميعا ، توكيدا لصحة هذه المسلمة .

وانما من معين النجاحات التي وفرها لي تأويل الاحلام استمددت القوة على الانتظار والشجاعة للمثابرة . وقد درجت في العادة على تقدير تفهم الناس السيكولوجي بحسب موقفهم من المشكلات ذات الصلة بالاحلام ، وتأكد لي ، بما يبعث على الرضى والسرور ، ان معظم خصوم التحليل النفسي يتحاشون المجازفة بطرق هذا الميدان او يتصرفون فيه تصرفا شديدا الخرق اذا ما عن لهم الولوج اليه . وقد قمت بتحليل نفسي بنفسي ، بعد ان تأكدت لي ضرورة ذلك ، وكانت وسيلتي الى ذلك مجموعة من احلامي اتاحت لي ان اقتفي اثر جميع أحداث سني طفولتي ؛ وانا لا ازال اعتقد الى اليوم بأن هذا الضرب من التحليل يمكن ان يكون كافيا اذا ما كان الشخص المعني كثير الاحلام ولا يشذ كثيرا عن سواء الناس .

بخيل الي ، بعد ان عرضت لانظار القراء جميع اطوار تاريخ التحليل النفسي هذه ، انني اوضحت ما كنه التحليل النفسي بأحسن مما كنت سأفعل فيما لو لجأت الى عرض منهجي له . وبإدريء ذي بدء ، لم أتنبه للطبيعة الخاصة لاكتشافاتي . وقد

ضحيت عن عمد بسمعتي الطبية البائدة ؛ ومن دون ان اخشى من تغير المرضى الذين شرعوا بالتدفق الى عيادتي اصررت على تحري الجبرية الجنسية لاعصبتهم ، الامر الذي اتاح لي ان اجمع كمية كبيرة من الملاحظات والملاحظات التي وفرت ركيزة نهائية لاقتناعي بالاهمية العملية للعامل الجنسي . ولغير ما غرض في نفس يعقوب رحت اتكلم في جلسات الجمعية التي كانت تضم الاختصاصيين الفييناويين والتي كان يترأسها آنثد كرافت - ايبينغ Krafft - Ebing . وكان كل املني ان القى في اهتمام زملائي بأفكاري وتعاطفهم معها تعويضا عن الاضرار المادية التي كنت اتحملها بطيبة خاطر . وقد تكلمت عن اكتشافاتي بوصفها مساهمات موضوعية في العلم ، وكان معقد رجائي ان يرى اليها الآخرون ايضا بصفته هذه . لكن الصمت الذي كان يعقب مداخلاتي ، والفراغ الذي راح يضرب أظنابه حولي شيئا فشيئا ، والتلميحات والتعريضات التي طفقت تنتهي السى مسامعي ، كل ذلك جعلني أفهم في النهاية انه لا يمكن للمرء ان يتوقع ان تحظى التصريحات بصدد دور الجنسية في اتيولوجيا الاعراض بنفس الاستقبال الذي تقابل به غيرها من التصريحات . وأدركت في خاتمة المطاف انني امسيت مندرجا مذكاً فصاعداً في عداد أولئك الذين «يعكرون صفو سبات العالم» ، بحسب تعبير هيبيل Hebbel ، وانه ليس لي ان اعتمد على الموضوعية والتسامح . لكن بما ان اقتناعي بالصوابية العامة لمعايناتي واستنتاجاتي كان يزداد ترسخا ، وبما انه كانت تتوفر لي في الوقت نفسه ثقة كبيرة بأحكامي الذاتية وشجاعة معنوية كافية ، فان المخرج النهائي للوضع الذي كنت اتخبط فيه ما كان مشكوكا فيه . واستقر عزمي على الاعتقاد بأنني وفقت الى اكتشاف علاقات لها دلالتها البليغة ، وكنت على استعداد لتحمل المصير الذي لا بد ان يعود به عليّ هذا الاكتشاف لحين من الزمن .

وهاكم كيف كنت أتصور هذا المصير : فأنا سأنجح في أرجح

الظن في صمودي بفضل النتائج العلاجية لطريقتي ، لكنني سابقى مجهولا - ما حييت - من قبل العلم . وبعد مرور بضعة عقود من السنين على وفاتي سيعيد شخص آخر ، لا محالة ، اكتشاف الاشياء ذاتها ، غير ذات الطابع الراهن في الوقت الحاضر ، وسيتمكن من فرضها بحيث تحظى بالقبول العام ، وسيرفعني الى مقام رائد لم يحالفه التوفيق . وبانتظار ذلك لن يكون لي من هم ، اقتداء بمثال روبنسون ، غير تدبر اقامتي بالقدر المستطاع في جزيرتي المنفردة . وحين أرجع بالفكر الى سنوات العزلة تلك ، ضاربا الصفح عن فوضى الزمن الحاضر وبلبلته ، يتراءى لي انه كان زمنا بطوليا حلوا : ف «العزلة الرائعة» (١٤) كانت لها مزاياها وما كانت تخلو من سحر وفتنة . فلم يكن عليّ ان اقرأ اي كتاب في المسائل المثيرة لاهتمامي ، ولم يكن عليّ ان اصيخ سمعاً لاعتراضات الخصوم غير المظلمين على الامر ، ولم اكن واقفا تحت اي تأثير ، ولم يكن شيء يزحمني . وكنت قد تعلمت كيف الجم الميل الى التأمل المجرد ، وطبقا لنصيحة معلمي شاركو التي لا تنتسى ، كنت قد اعتدت على الرجوع مرارا وتكرارا الى المسائل عينها ، الى ان يبرز منها نور ما تلقائيا . وكان بوسع كتاباتي المنشورة - التي ما كنت افلح في نشرها الا بعد لأي - ان تبقى ساخرة عن حالة معرفتي ، بل كان من الممكن ارجاء نشرها بلا محذور ، اذ لم يكن ثمة من وجود لـ «أسبقية» مشكوك فيها ومستوجبة للدفاع عنها . وعلى سبيل المثال ، كان عليهم الاحلام (١٥) جاهزا ، في اقسامه الاساسية ، منذ بداية عمام

١٤ - بالانكليزية في النص . -م-

١٥ - علم الاحلام او تاويل الاحلام Traum Deutung : من اشهر كتب اريد وأضحها ، انجزه سنة ١٨٩٨ ، وطبعه سنة ١٨٩٩ ، وجعل تاريخ نشره سنة ١٩٠٠ . -م-

١٨٩٦ ، لكنني لم اكتبه الا في عام ١٨٩٩ . وكان علاج «دورا» قد انتهى في عام ١٨٩٩ ، وقد حررت معاينتها في الاسبوعين التاليين لنهاية علاجها ، لكنه لم ينشر الا في عام ١٩٠٥ (١٦) . وفي اثناء ذلك كانت الصحافة المتخصصة تهمل عرض كتبي ، واذا ما حدث وفعلت ذلك فانما لتنفض يدها منها بسيماء من التعالي الساخر . وبالمناسبة اشير الى ان زميلا ، مختصا مثلي في الامراض العصبية ، تنازل وخصني في بعض كتاباته بملاحظة مقتضبة ليس فيها من الاطراء لي شيء ، اذ وصف نظرياتي بأنها غريبة ، متطرفة ، بل شاذة . وذات يوم سألتني مساعد في العيادة الفييناوية التي كنت القي فيها دروسي نصف السنوية الاذن بحضور محاضراتي . وقد اصاخ السمع بانتباه عظيم ، ولم ينبس ببنت شفة ، لكنه اقترح ، بعد المحاضرة الاخيرة ، ان يرافقني بضع خطوات . وثناء تلك الجولة اعترف لي بأنه كتب، بموافقة رئيسه ، كتابا موجها ضد نظرياتي ، واضاف القول انه نادم على فعلته هذه بعد ان اتيج له ، من خلال دروسي ، ان يكون فكرة اصح عن هذه النظريات . فلو كان عرفها من قبل كما بات يعرفها الان ، لما كتب كتابه . وكان قد سأل الجهاز الاداري في العيادة عما اذا لم يكن من المناسب ، قبل ان ينكب على تحرير كتابه ، ان يقرأ علم الاحلام ، لكن جاءه الجواب بان الامر لا يستأهل هذه المشقة . وقد شبه نفسه بمثانة البنية الداخلية لبنيناني النظري، كما بات يعرفه الان، بمثانة الكنيسة الكاثوليكية. ولخلاص روحي ، لا بد لي من الاعتراف هنا بأن هذا التشبيه كان ينطوي على استحسان لبنيناني النظري . لكنه ختم كلامه مع ذلك بالقول بان الاوان قد فات ، وبأنه ما عاد في استطاعه ان يغير شيئا في كتابه ، اذ انجزت طباعته . وهو لم ير على كل حال من

ضرورة لاحقا ليقر علنا بالتحول الذي طرأ في فكره حيال التحليل النفسي ؛ بل أكثر ، في خلاصاته التي كان ينشرها في دورية طبية ، أن يرافق تطور التحليل النفسي بتعليقات ساخرة .

من حسن الحظ أن حساسيتي الشخصية كانت قد فقدت الكثير من حدتها في إبان تلك السنوات . بيد أن ظرفا بالغ الخصوصية ، لم يعرفه الكثير من المجدّدين المعزولين الآخرين ، ساعدني على تحمل حظي العاثر ، دونما مرارة أو ضغينة مجاوزة الحد . فالمجدد الذي لم يقدر حق قدره يجشم نفسه بوجه العموم مجهودا كبيرا لبحث عن اسباب لامبالاة معاصريه به أو عدائهم له ، وهو يرى في هذه اللامبالاة وفي هذا العداء تحديا حقيقيا لقناعاته التي يتراءى له انها ترقى الى مستوى اليقين المطلق . والحال انني لم اتجشم مجهودا من هذا القبيل ، إذ لم يشق عليّ أن اجد تفسيراً تحليلياً نفسياً صرفاً لموقف معاصريّ السلبي من نظرياتي . فقد قلت بيني وبين نفسي : اذا صح أن الوقائع المكتوبة التي اكتشفت وجودها لا يمكن أن تصل الى وعي المريض ، إذ تعارض ذلك مقاومات وجدانية ، فلا بد أن يكون صحيحاً أيضاً أن ثمة مقاومات مماثلة تتظاهر لدى الإنسان المعافى كلما شاء أحدهم أن يضعه في مواجهة وقائع كان قد خيل له ، لسبب أو لآخر ، أن من واجبه أن يطردها من وعيه . وأرجح الظن أنه سيسعى الى تبرير هذا النفور الوجداني في جوهـره بأسباب عقلية . وليس لذلك أن يدهشنا ، ما دمنا نلتقي بمجهود التعقيل Rationalisation هذا نفسه لدى الإنسان المريض الذي يلجأ الى استخدام الحجج ذاتها على قلة حذاقتها (كأن فالستاف (١٧) يقول : لا شيء أكثر شيوعاً من الحجج خلا التوت

١٧ - فالستاف : تعريف لاسم فاستولف ، وهو قبطان انكليزي (نحو

١٢٧٨ - ١٢٥٩) انتصر في معارك فرنوي وأورليان في حرب المئة عام ، واتخذ

نموذجاً لبطله فالستاف في مسرحية هنري الرابع . -م-

البري) . والفارق الوحيد انما يكمن في انه تتوفر لنا ، في حال الانسان المريض ، وسائل ضغط يمكننا معها ان نكشف له عن وجود المقاومات وان نتيج له امكانية تدليلها والتغلب عليها ، بينما تعوزنا هذه الوسائل في حال الانسان المعتر معاني . هل سيكون في استطاع هؤلاء الاشخاص ذات يوم ، وعن اي سبيل، ان يجدوا لزاما عليهم اخضاع نظرياتي لامتحان هادئ ، رائق ، موضوعي علميا ؟ كانت هذه ما تزال بالنسبة الي معضلة محفوفة بالغموض ؛ ولقد قلت بيني وبين نفسي ان خير ما افعله هو ان اجعل اتكالي على الزمن ، وان انتظر حل المشكلة بفعل التطور الطبيعى للعقول . فكثيرا ما لوحظ في تاريخ العلوم ان توكيدا من التوكيدات اصطدم من الوهلة الاولى بمعارضة عنيفة لا يلبث في وقت لاحق ان يلقى قبولا ، من دون ان تقوم أدلة جديدة في صالحه .

مهما يكن من امر ، فلن ادهش في ارجح الظن احدا فيما لو ذكرت ان موقف معاصريّ ، في السنوات التي كنت فيها الممثل الوحيد للتحليل النفسي ، ما كان من شأنه ان يوحى الي بكبير احترام لاحكام الانام ، او ان يحثني على التخفيف من صلابتي الفكرية .

- ٢ -

في عام ١٩٠٢ تشكلت حولي مجموعة من اطباء شبان ، كان هدفهم المعلن تعلم التحليل النفسي لتكريس انفسهم له ، ومن ثم العمل على نشره . وكانت مبادرة هذا التجمع تعود الى زميل اختير في شخصه بالذات المفاعيل الحسنة للمعالجة التحليلية . كنا نجتمع في بعض الاماسي في منزلي ، ونتاجش متقيدين ببعض القواعد ، ونسمى الى تعرف موطيء اقدامنا في مضمار الابحاث الجديد كل الجدة هذا ، والى اثاره اهتمام الآخرين به . وذات يوم زارنا فتى كان قد انهى لتوه دراسته في مدرسة مهنية . وكان يحمل مخطوطة نمّت عن تفهم مذهش للتحليل النفسي . فدعواناه الى متابعة دراسته الثانوية ، ثم الى تسجيل نفسه في الجامعة والى تكريس ذاته للتطبيقات غير الطبية للتحليل النفسي . وهكذا صار لجموعتنا الصغيرة امين سر مندفع وموثوق ، ولم يلبث اوتو رانك Rank (١) ان اصبح ،

١ - الذي صار مديرا لدار «النشورات الدولية للتحليل النفسي» ، ومحررا في «الجلة الدولية للتحليل النفسي» ومجلة «ايمافو» منذ تأسيسهما.

بالنسبة الي شخصيا ، مساعدا ومعاوننا يصمد في تفانيه
واخلاصه لكل امتحان .

لم تلبث حلقتنا الصغيرة ان توسعت ، لكن تركيبها تبدل غير
مرة في ابان السنوات التالية . على انه يمكنني القول ، اذا اخذنا
كل شيء بعين الاعتبار ، انها ما كانت ثقل شأنا ، من حيث تنوع
المواهب وغنى القابليات ، عن هيئة أعوان اي استاذ سريري .
فقد كانت جماعتنا تضم من البداية جميع اولئك الذين سيلعبون
فيما بعد ، في تاريخ الحركة التحليلية النفسية ، دورا مهما ،
بل لا غبار عليه في اكثر الاحوال . لكن كان من المتعذر وقتئذ
توقع هذا التطور . وما كان لي الا ان اشعر بالرضى والسرور ،
وعندي يقين بانني فعلت كل ما هو منوط بي لكي اضع في متناول
الآخرين كل ما كنت اعرفه وما عرفته انا شخصيا عن طريق
التجربة . واقعتان اثنتان فقط ما كانتا تبشران بخير ، وقد
حملتاني في نهاية المطاف على الابتعاد معنويا عن هذه الحلقة .
فانا لم افلح في ان اشتر بين اعضائها ذلك الوفاق الودي الذي
ينبغي ان يقوم بين اناس يندرون انفسهم لعمل واحد ، قاسر
وشاق ؛ كما لم افلح في استبعاد مناقشات الاسبقية ، تلك
المناقشات التي تقدم لها شروط العمل المشترك العديد من
الذرائع . وكانت الصعوبات التي ينطوي عليها تعليم التحليل
النفسي وتطبيقه العملي - وهي صعوبات جسيمة للغاية وعلة
لمعظم الاختلافات والخلافات الراهنة - قد بدأت مفاعيلها تظهر
للعيان منذ ذلك الحين في الاجتماعات الخاصة لرابطة التحليل
النفسي الصغيرة في فيينا . اما انا فبالنظر الى ان التقنية لم
تكن قد اكتملت بعد والى ان النظرية كانت قيد التطور ، لم اجرو
على تعليم اي منهما بحزم كاف ؛ وهذا ما اخطأت فيه ، لانني لو
فعلت لكنت وفرت على الآخرين اكثر من خطأ في اغلب الظن ولكنت
تداركت اكثر من حيدان عن الصراط المستقيم . ان المرء ليخالجه

على الدوام شعور عظيم بالرضى كلما رأى تلاميذه وقد امتلكوا القدرة على العمل المستقل وانعتقوا من تبعيتهم لمعلمهم . لكن هذا الاستقلال وهذا الانعتاق لا يكونان خصيين من وجهة النظر العلمية الا اذا ارتبطا ببعض السجاي الشخصية التي غالبا ما ينسدر وجودها ، ويا للأسف . والحال ان التحليل النفسي يقتضي بالتحديد انضباطا طويل الامل وصارما ، كيما يتمكن المرء من السيطرة التامة على نفسه . وتقديرا مني للشجاعة التي كانوا يبذلونها بانكبابهم على هذا العمل المرذّل من الآخرين وغير الواعد بكسب مادي في المستقبل ، كنت اميل الى غض النظر عن اشياء كثيرة من جانب اعضاء اجتماعاتنا ، مع انها كانت ستصدمني بقوة فيما لو اختلفت الظروف . وعلى كل ، لم يكن ينتمي الى حلقتنا اطباء فحسب ، بل كذلك اشخاص مثقفون آخرون شاموا في التحليل النفسي شيئا ذا مغزى : كتاب ، فنانون ، الخ . وكان علم الاحلام والكتاب عن النكتة (٢) ، الخ ، قد اظهروا ان نظريات التحليل النفسي ليست من طبيعة طبية حصرا ، بل قابلة ايضا للتطبيق على الفروع البالغة التنوع للعلوم المعنوية .

وخلافا لكل توقع ، طرأ على الوضع في عام ١٩٠٧ تغير مباغت بقدر ما هو شامل . فقد تنهى الى علمنا ان التحليل النفسي قد ايقظ ، بلا ضجيج ، اهتمام بعض الاشخاص ، وانه اكتسب اصدقاء ، وان ثمة علماء على استعداد للانتساب اليه . وكانت رسالة من بلولر **Bleuler** قد أعلمتني من قبل ان ابحائي تدرس وتستخدم في بورغولزلي . وفي كانون الثاني ١٩٠٧ ، قدم د. ايتنغون **Eitingon** (٢) ، من عيادة زورنخ ،

٢ - يشير فرويد هنا الى كتابه «النكتة وصلاتها بالاشعور» ، الصادر

عام ١٩٠٥ . -م-

٣ - أسس فيما بعد العيادة التحليلية النفسية المتعددة الاختصاصات في

الآن .

الى فيينا ، وسرعان ما اعقبت زيارته زيارات اشخاص آخرين كثيرين ، مما شرع الابواب امام تبادل واسع ونشط للافكار .
وأخيرا ، وبناء على دعوة من ك.غ. يونغ ، الذي كان آنئذ طبيبا مساعدا في بورغولزلي ، انعقد في سالزبورغ ، في ربيع ١٩٠٨ ، اول اجتماع لاصدقاء التحليل النفسي المقيمين في فيينا وزوريخ وغيرهما . وفي ذلك المؤتمر التحليلي النفسي الاول تقرر تأسيس مجلة ، وشرعت فعلا بالصدور سنة ١٩٠٩ باسم **حولية الابحاث التحليلية النفسية والسيكولوجية المرضية** باشراف بلولر وفرويد ، واسندت رئاسة تحريرها الى يونغ . وكان المفروض بهذه النشرة ان تكون بمثابة صلة وصل بين فيينا وزوريخ وأن تشجع العمل المشترك للمحللين النفسيين في هاتين المدينتين .

لقد اشدت مرارا وتكرارا بالافضال الكبيرة لمدرسة الطب النفسي في زوريخ ، وعلى الاخص بلولر ويونغ لمساهمتها في نشر التحليل النفسي ، وليس في نيتي الرجوع اليوم عن هذه النقطة وان اختلفت الظروف اشد الاختلاف . ومن المؤكد انه ليس بفضل تدخل مدرسة زوريخ وحده شد انتباه العالم العلمي الى التحليل النفسي . بل كان التطور طبيعيا في الواقع : فقد كانت مرحلة الكمون قد انتهت وصار التحليل النفسي في كل مكان موضوع اهتمام متزايد باستمرار . لكن نقطة الاهتمام هذه بالتحليل النفسي لم تفض في كل مكان آخر الا الى شجب محموم في اكثر الاحيان ، بينما لم يسجل سوى التأييد والانتساب له في زوريخ . وفي اي مكان آخر ما كان انصار التحليل النفسي يشكلون ، كما في زوريخ ، جماعة متلاحمة ، وان ضئيلة التعداد ؛ كذلك لم تكن تتوفر في أي مكان آخر عيادة رسمية موضوعة في خدمة التحليل النفسي ، مثلما ما كان اي استاذ سريري في أي مكان آخر ليجرؤ على ادراج النظريات التحليلية النفسية في المنهاج التعليمي للطب النفسي . هكذا شكل الزوريخيون نواة

الفيلق الصغير المكافح في سبيل الاعتراف بالتحليل النفسي .
وهم وحدهم الذين سنحت لهم الفرصة للتبحر في الفن الجديد
ولاغوائه بالابحاث . واكثر انصاري ومعاوني الحالين جاؤوا الي
مرورا بزورنخ ؛ وهذا ينطبق حتى على اولئك الذين كانوا ، من
وجهة النظر الجغرافية ، ابعد عن سويسرا منهم عن فيينا . ان
فيينا تشغل موقعا منحرفا عن المركز في اوروبا الغربية التي تضم
غالبية المراكز الكبرى لحضارتنا ؛ وقد لحق بسمعتها اذى كبير
منذ العديد من السنوات لما احاق بها من احكام مسبقة خطيرة ؛
بينما يتدفق على سويسرا ، حيث الحياة الفكرية في منتهى
النشاط ، ممثلو جميع الامم الكبيرة ، وكل بؤرة عدوى تتشكل
في هذا البلد لا يمكن الا ان تسهم بأوفر قسط في نشر ما اسماه
«هوش Hoche ، من مدينة فريبورغ ، بالوباء النفسي .

طبقا لشهادة زميل تابع عن كتب التطور الذي تم فسي
بورغولزلي ، فان الاهتمام فيه بالتحليل النفسي بدا من وقت
مبكر . وقد تضمن بحث ليونغ عن الظواهرات الغيبية ، ظهر عام
١٩٠٢ ، اول احوالة الى تأويل الاحلام . وبدءا من ١٩٠٣ ، او
١٩٠٤ ، حسبما يروي شاهدي ، افلح التحليل النفسي في
احتلال المكانة الاولى . وبعد اقامة علاقات شخصية بين زورنخ
وفيينا ، تكونت في بورغولزلي في اواسط عام ١٩٠٧ ، على حد
ما ذكر لي ، رابطة خاصة كان اعضاؤها يجتمعون دوريا ليناقدوا
المسائل المتعلقة بالتحليل النفسي . ولم يكن دور السويسريين ،
في الاتحاد الذي انعقد بين مدرسة فيينا ومدرسة زورنخ ، يقتصر
على التلقي والاستقبال فحسب . بل كانوا قد نشروا أبحاثا علمية
محترمة ، كانت نتائجها ثمينة للغاية بالنسبة الى التحليل
النفسي . وكانت لهم المبادرة الى تأويل امتحان التداعي ، الذي

قالت به مدرسة فونت (٤) ، باتجاه التحليل النفسي ، وهذا ما اتاح لهم امكانيات تطبيقية لامتوقعة . وبذلك صار بالامكان الحصول على توكيدات اختبارية سريعة للطروحات التحليلية النفسية ، وتقديم عروض برهانية لكل من يريد الامام بأصول التحليل النفسي ، علما بأن مثل هذه البرهنة كانت تتم فسي السابق كلاميا فحسب . والحق ان ذلك كان اول جسر يقام بين علم النفس التجريبي والتحليل النفسي .

ان امتحان التداعي يتيح الامكانية ، في اثناء المعالجة التحليلية النفسية ، للقيام بتحليل كيفي مسبق للحالة المرضية ، لكنه لا يفتي التقنية بأية مساهمة جوهرية . بل من الممكن انجاز التحليل بدون اللجوء اليه . وأهم منه كانت المساهمة الاخرى لمدرسة زوربخ ، او بلاخرى لاثنين من زعمائها : بلولر ويونغ . فقد بين الاول وجود مجموعة كاملة من الحالات الطبفسائية التي لا سبيل الى تفسيرها الا على ضوء سيورورات من نسوع السيورورات التي يفسر بها التحليل النفسي الاحلام والعصاب («أواليات فرويد») . واستطاع يونغ من جهته ، بتطبيقه منهج التأويل التحليلي على ظاهرات الخيل المبكر الاكثر شذوذا وغموضا ، ان يبرهن على وجود الروابط التي تربطها بحياة المريض السابقة وباهتماماته الحيوية . وبدءا من ذلك اليوم ما عاد مباحا للاطباء النفسانيين الاستمرار في تجاهل التحليل النفسي . ومن الممكن ان يعد المؤلف الكبير بلولر عن فصام الشخصية (١٩١١) ، وفيه تحظى النظرة التحليلية النفسية بتقدير مماثل لذلك الذي تحظى به الطريقة السريرية - المنهجية ، تتويجا للتطور موضوع بحثنا هنا .

٤ - فلهم فونت : عالم نفس وفيلسوف الماني (١٨٣٢ - ١٩٢٠) ، مؤسس علم النفس التجريبي . -م-

لا يسمني الا اغتنم الفرصة السانحة لانوه بالفارق الذي كان قائما ، منذ ذلك الحين ، بين المدرستين من حيث اتجاه العمل العلمي . فقد كنت نشرت ، في عام ١٨٩٧ ، تحليلا لحالة فصامية ، لكن بما ان هذه الحالة كانت تتسم بطابع ذهائسي هذا Paranoide حاد ، فان شفاءها لا يمكن ان يعهد استباقا للنتائج المحرزة بعد تحليل يونغ لها . بيد ان ما كان يهمني في المقام الاول ليس تأويل الاعراض ، بل اوالية المرض النفسية ، وقبل كل شيء التشابه ، بله التطابق المحتمل ، بين هذه الاوالية وبين اوالية الهستيريا ، المعروفة والمثبتة . وما كنا نعرف من شيء بعد عن الفروق بين الاواليتين . وكان الهدف الذي وضعته منذ ذلك الحين نصب عيني ارساء الاسس لعلاج للاعصبية يرتكز الى تصور مؤداه ان جميع الظواهر العصبية والذهانية قابلة للتفسير بمصائر الليبدو غير السوية وبانحرافات عن اتجاهه الطبيعى . وكانت وجهة النظر هذه غريبة عن العلماء السويسريين . وعلى حد علمي ، ما يزال بلولر الى اليوم نصيرا متحمسا للجبرية العضوية لجميع اشكال الخبل المبكر ، وقد اعلن يونغ - الذي كان كتابه حول هذا الموضوع قد صدر عام ١٩٠٧ - في مؤتمر سالزبورغ عام ١٩٠٨ انه يؤيد نظرية الجبرية السمية لهذا المرض ، وهذه النظرية ان كانت لا تنفي النظرية التي عمادها الليبدو فانها تستأهل مع ذلك الاولوية في رأي يونغ . وقد تعثر لاحقا (١٩١٢) عند النقطة عينها ، فاستنجد على نحو لا يخلو من غلو وإسراف بالمواد التي كان قد تأبى كل التأبي آنفا عن استخدامها .

كان للمدرسة السويسرية مساهمة ثالثة ، ولعله ينبغي ان نسب الفضل الوحيد فيها الى يونغ ، وان كانت لا تتميز بتلك الاهمية التي يعزوها اليها الاشخاص الغرباء عن التحليل النفسي . اعني بها نظرية العقد كما تتجلى في دراسات في

تشخيص التداعي (٥) (١٩٠٦ - ١٩١٠) . فهي لا تشكل نظرية سيكولوجية مستقلة ولا تحتل مكانا لها بصورة طبيعية ومنطقية في مجمل النظريات التحليلية النفسية . وبالمقابل ، فان كلمة «عقدة» - وهي مصطلح مناسب ولا غنى عنه في كثير من الاحيان لوصف مجمل الاوضاع النفسية - قد اكتسبت حق المواطنة في التحليل النفسي . ومن العسير علينا ان نجد بين سائر المصطلحات والتسميات المبتدعة لتلبية حاجات التحليل النفسي مصطلحا واحدا يتمتع بمثل تلك الشعبية وجرى استخدامه بمثل ذلك الاسراف ، وان لحق من جراء ذلك ضرر كبير بوضوح المصطلحات ودقة المفاهيم . فكثيرا ما يدور الكلام في الاوساط التحليلية النفسية عن «عودة العقد» ، مع ان المقصود في الواقع «عودة الميول» او «الذكريات المقموعة» ؛ كما جرت العادة على القول : «انني اشعر ازاءه بعقدة» ؛ مع ان الاصح القول : «اشعر ازاءه بمقاومة» .

بدءا من عام ١٩٠٧ ، اي في السنوات التالية لاقامة علاقات دائمة بين فيينا وزوريخ ، عرف التحليل النفسي تلك الانطلاقة المدهشة التي ما نزال نعيش الى اليوم تحت تأثيرها ؛ انطلاقة يقوم الدليل عليها في كثرة التأليف عن التحليل النفسي ، وفي تزايد عدد الاطباء الراغبين في تعلم اصول التحليل النفسي او ممارسته ، وكذلك في تواتر الحملات عليه في مؤتمرات الجمعيات العلمية واجتماعاتها . وقد ذاع امر التحليل النفسي حتى في انحاء الامصار ، موقظا الاطباء النفسانيين من سباتهم وجاذبا اليه انتباه المثقفين من غير اهل الاختصاص وممثلين فروع اخرى من العلم . وقد كتب هافلوك إيليس Havelok Ellis ، الذي

تتبع تطوره بتعاطف لكن من غير ان يعلن مناصرته له ، كتب في مقال له سنة ١٩١١ : «ان لمذهب فرويد في التحليل النفسي انصارا اليوم ، وهو قيد الممارسة لا في النمسا وسويسرا فحسب ، بل كذلك في الولايات المتحدة وانكلترا والهند وكندا ، وكذلك في استراليا في أرجح الظن» (٦) . وجهر طبيب تشيلي (من اصل الماني على الأرجح) في مؤتمر بيونس آيرس الدولي (١٩١٠) بتأييده لوجود الجنسية الطفلية ، واثنى على النتائج التي تحرزها المعالجة التحليلية النفسية للاعراض الوسواسية (٧) . وابلغني اختصاصي انكليزي في الامراض العصبية ، يقيم في الهند الوسطى (بركلي هيل) ، بوساطة زميل شهير كان يقصد اوروبا ، ان الاعصبة لدى الهنود المسلمين ، الذين يطبق التحليل عليهم ، ترتبط اتيولوجياً بنفس الاسباب التي ترتبط بها لدى المرضى الاوروبيين .

ودخل التحليل النفسي الى اميركا الشمالية تحت رعاية كريمة حقاً . ففي خريف ١٩٠٩ دعانا السيد ستانلي هـال Hall ، رئيس جامعة كلارك ، الى ورسستر (قرب بوسطن) ، انا وبونغ ، بمناسبة الذكرى العشرين لتأسيس هذه الجامعة ، الى القاء سلسلة من المحاضرات باللغة الالمانية . وقد تأكد لنا بالمشاهدة ، وعلى دهش عظيم منا ، ان اعضاء هذه الجامعة الفلسفية - التربوية الصغيرة لكن المحترمة ، اشخاص متحررون من الاحكام المسبقة ، مطلعون على الابحاث التحليلية النفسية

٦ - هافلوك ايليس : «مذاهب مدرسة فرويد» The Doctrines of The Freud School

7 — G. Greve, Sobre Psicologia Y Psicoterapia De Ciertos Estados Angustiosos. انظر المجلة المركزة للتحليل

النفسى ، المجلد ١ ، ص ٥٩٤ .

التي اتخذوها مادة لتثقيف تلامذتهم بها في دروسهم . والحق انه في امريكا المتحشمة ، البادية الحياء تلك ، كان يمكن للدوائر الاكاديمية مع ذلك ان تتكلم بحرية وان تبحث في ما يعد مستهجنا في الحياة الجارية . والمحاضرات الخمس التي ارتجلتها في ورسستر قد نشرت فيما بعد ، بترجمتها الانكليزية ، في **المجلة الاميركية لعلم النفس** American Journal

of Psychology ، وبعيد ذلك بنصها الالماني تحت عنوان Ueber Psychoanalyse (٨) . اما محاضرات يونغ فقد درست التداعيات من وجهة نظر التشخيص ، وكذلك **صراعات النفس لدى الطفل** . وقد منحنا كلانا لقب LL.D الفخري (دكتور في القانونين) . وفي ذلك الاسبوع الاحتفالي كان التحليل النفسي ممثلا في ورسستر ، بالاضافة الى يونغ وإلي ، بفيرنزي (٩) الذي حرص على مرافقتي في سفرتي ، وبارنست جونز الذي كان آنئذ استاذا في جامعة تورونتو (كندا) ، وحاليا في لندن ، وب.ا. بريل الذي كان قد شرع بممارسة التحليل النفسي في نيويورك .

لقد عقدنا في ورسستر صلات - ارتدت بالنسبة الى التحليل النفسي اهمية كبرى - مع السيد جيمس ج. بوتنام ، استاذ علم الامراض العصبية في جامعة هارفارد . وكان هذا قد جاهر قبل بضع سنوات بمعارضته للتحليل النفسي ، لكنه غير رايه فيه على حين غرة ووفق يعرضه ، بروح ودية ، على مواطنيه وزملائه ، في احاديث ثرة المضمون بقدر ما هي جميلة الشكل .

٨ - راجع خمسة دروس في التحليل النفسي ، دار الطليعة ، بيروت

١٩٧٩ .

٩ - د. ساندور فيرنزي : طبيب مجري ، تلميذ وصديق لفرويد ، مؤلف

تالاسا و الذكر والمؤنث (١٨٧٣ - ١٩٣٣) . -م-

وما كان للاحترام الذي يتمتع به في اميركا ، لما عرف عنه من سمو في الاخلاق ومن حب متجرد وشجاع للحقيقة ، الا ان يعود بالفائدة على التحليل النفسي ، اذ وفر له درعا تقيه شر حملات التشهير التي كان من المحتم ان تنال عاجلا من سمعته . غير ان السيد بوتنام ارتأى ان من واجبه ، صدوعا منه للمطالب الاخلاقية والفلسفية لطبيعته الكريمة ، ان يسأل التحليل النفسي اكثر مما يمكن ان يعطيه ، وابتغى ان يضعه في خدمة تصور اخلاقي - فلسفي معين للعالم . على انه يبقى المدافع والسند الرئيسي للحركة التحليلية النفسية في بلاده (١٠) .

وليس لنا ، مهما افضنا ، ان نحصر كل ما تدين به هذه الحركة لجونز وبريل . فتعريفا بها وتسهيلا لذيوها وانتشارها عكفا في كتاباتهما ، بحماسة لا تعرف الكلل ، على تنوير ابناء وطنهما بصدد الوقائع الاساسية للحياة اليومية والاحلام والاعصبة . وقد تميز بريل ، من هذه الزاوية ، بنشاطه الطبي وبترجمته لاعماله ، بينما استهدف جونز الهدف عينه من خلال محاضراته العظيمة الفائدة ومداخلاته الكفاحية في المناقشات التي كانت تنشب في المؤتمرات حول موضوع التحليل النفسي (١١) .

10 — S.J.J. Putnam, Adresses on Psychoanalysis, internat. Psycho - Analyt. Library, Ni, 1921.

١١ - بريل :

Psychoanalysis, its Theories And Practical Applications

(التحليل النفسي : نظرياته وتطبيقاته العملية) ، ١٩١٢ ، و . إ . جونز : Papers

on Psychoanalysis (مقالات في التحليل النفسي) ، ١٩١٥ . وقد صدرت

طبعة ثانية لأول هذين المؤلفين سنة ١٩١٤ ، أما السيد جونز فقد نشر في عام

١٩١٨ طبعة ثانية (مزيدة جدا . من «مقالاته» ، وأعقبها سنة ١٩٢٢ بثالثة .

ان غياب التقاليد العلمية العريقة وعدم تزمت السلطات الرسمية كان من شأنهما تشجيع الحركة لصالح التحليل النفسي في اميركا ، بعد ان اعطاها ستانلي هال زخمها الاول . وقد لوحظت في تلك البلاد واقعة خاصة مميزة تجلت في ان الاساتذة ومدراء المصحات العقلية ابدوا تلهفا الى تجريب التحليل النفسي يعادل ذلك الذي ابداه النطاسيون العاديون . بيد ان هذه الواقعة هي بذاتها التي تبين لنا ان الكفاح في سبيل التحليل النفسي ما كان يمكن ان يتمخض عن قرار حاسم الا في الافطار التي اصطدم فيها بأضرى مقاومة ، اي في البلدان القديمة الحضارة .

ان فرنسا ، بين سائر البلدان الاوروبية ، هي التي ابدت حتى الان عن اعنى مقاومة للتحليل النفسي ، بالرغم من ان الزوريخي^١، ميدر Maeder نشر ابحاثا ثاقبة قيمة بأن تفتح للقراء الفرنسيين المدخل الى النظريات التحليلية النفسية . وقد جاءت اولى تظاهرات التعاطف من الاقاليم الفرنسية . وكان موريشو - بوشان Morichau - Beauchant (من بواتيه) اول من انتسب علنا وجهارا الى التحليل النفسي . وفي وقت لاحق (١٩١٣) حاول السيدان ريجيس Régis وهينار Hesnard (من بوردو) ، من خلال عرض افتقر في كثير من المواضع الى الوضوح ووجه رأس هجومه الى الرمزية ، ان يبدوا الاحكام المسبقة لابناء وطنهما والمناهضة للنظرية الجديدة . وفي باريس بالذات ، يبدو انه لا يزال يسود رأي شائع ، عبر عنه أفصح تعبير السيد جانيه Janet (١٢) في مؤتمر لندن (١٩١٣) ، ومؤداه ان كل الاشياء الجيدة التي ينطوي عليها التحليل النفسي انما هي نسخة معدلة عن افكار جانيه ، على اعتبار ان كل ما لا يتفق مع

١٢ - بيير جانيه : من دواد علم النفس التجريبي في فرنسا (١٨٥٩) -

هذه الافكار انما هو رديء . وكان جانيه قد اضطر ، في اثناء المؤتمر بالذات ، الى الرضوخ اراء تصحيحات جونز الذي اظهر له انه غير متبحر تبحرا كافيا في المسألة . بيد اننا اذ نرد مزاعمه نجدنا ملزمين بالاقرار بما اداه من مساهمات جديّة في مضمار علم نفس الاعصبة .

في ايطاليا ، توقفت الحركة دفعة واحدة ، بعد بدايات بدت حافلة بالوعود . وفي هولندا وجد التحليل النفسي منفذا له في زمن مبكر بفضل علاقات شخصية : اذ قام فان امدن Emden وفان اوفويزن Ophuijsen وفان رنترغم Rentergem (Freud En Zijn School) بنشاط نظري وعملي مرموق في هذا المجال (١٣) . اما في انكلترا فلم يستيقظ اهتمام الدوائر العلمية بالتحليل النفسي الا رويدا رويدا ، بيد ان بعض الدلائل تبيح لنا ان نأمل ان يصل فيها التحليل النفسي الى درجة متقدمة جدا من التطور لما عرف عن الانكليز من حس عملي وممن حب مضطرم للعدالة .

في السويد تخلقى ب. بير Bjerre ، خليفة فيترستراندر Wetterstrand العلمي ، مؤقتا على الاقل ، عن الإحياء التنويمي لصالح المعالجة التحليلية النفسية . واقر ر. فوغت Vogt ، (من كريستيانا) في كتابه Psykiatriens grundtraek الصادر سنة ١٩٠٧ ، بفضل التحليل النفسي ، بحيث يمكن

١٣ - جاء اول اعتراف رسمي بتأويل الاحلام والتحليل النفسي في اوروبا على لسان الطبيب النفساني بلجرسما Jelgersma ، رئيس جامعة لايدن، Unbewusstes Geis- في خطابه الانتتاحي في ٩ شباط ١٩١٤ tes Leben, «Beihefte Der Internat. Zeitschr. F. Pschoanal», NI .

(الحياة العقلية اللاواعية » في من دفاتر المجلة الدولية للتحليل النفسي) .

القول ان اول مبحث في الطب النفسي حمل التحليل النفسي على محمل الجد قد ظهر باللغة النرويجية . وفي روسيا ، لم يطل الوقت بالتحليل النفسي كي ينتزع الاعتراف به ويعرف رواجاً واسعاً : فجميع مؤلفاتي تقريباً ، وكذلك العديد من مؤلفات تلاميذي ، قد ترجمت الى الروسية . لكن هذا لا يعني ان الروس قد افلحوا في الوصول الى فهم معمق لنظرياتي . فمساهمات الاطباء الروس في التحليل النفسي ما يزال في الامكان اعتبارها غير ذات شأن . وحدها مدينة اوديسا تملك في شخص السيد وولف Wulff محللاً نفسياً كفواً . وكان ادخال التحليل النفسي الى العلم والادب البولونيين من صنيع ل. جيكلز Jekels في المقام الاول . أما هنغاريا ، القربة غايّة القرب من النمسا جغرافياً والبعيدة عنها غاية البعد مع ذلك علمياً ، فلم تقدم بعد للتحليل النفسي سوى معاون واحد ؛ لكن هذا المعاون يدعى س. فيرنزي ويعدل وحده جمعياً بكاملها (١٥) .

١٥ - ليس في نيّتي ان استكمل هذا الوصف ، الذي وضعت معالمه الاولى سنة ١٩١٤ ، وصولاً الى اليوم (Up To Date) . بل سأضيف فقط بعض ملاحظات متتعبة بغية التمرّيف بالتغيرات الطارئة على هذه الصورة في فترة التوقف المتمثلة بالحرب العالمية . ففي المانيا تسربت النظريات التحليلية شيئاً فشيئاً الى الطب النفسي السريري ، وان لم يعترف احد بذلك ؛ كما افلحت الترجمات الفرنسية لمؤلفاتي ، التي صدرت مؤخراً ، في ايقاظ اهتمام موقدٍ بالتحليل النفسي ، اكثر توقداً في الاوساط الادبية منه في الاوساط العلمية . وفي ايطاليا اشتهر السيد ليفي بيانيني (نوسيرا العليا) وادواردو فايس (تريستا) كترجمين للتأليف التحليلية النفسية وكنصيرين التحليل النفسي . (Biblioteca Psicoanalitica Italiana)

وتشهد طبعة لاعمال الكاملة في مدريد (بترجمة اوبيز بالثروز) على الاهتمام الذي تبديه بلدان اللغة الاسبانية بالتحليل النفسي (الامستاد ه. دلفادو) في ايطاليا . اما فيما يتعلق بانكلترا فان النبوءة التي افصح عنها اعلاه تبدو =

فيما يتعلق بألمانيا ، يمكن القول ان التحليل النفسي يشكل فيها مركز المناقشات العلمية ويقابل من جانب الاطباء وغير اهل الاختصاص في آن معا بحملات الشجب والاستهجان اللامتحفظة التي ، بدلا من ان تهذا ، تعود فتستمر بين الحين والآخر بعنف متزايد . وما من مؤسسة رسمية فيها مفتوحة لتعليم التحليل النفسي او لمزاولته ، وقليلون هم الاطباء الذين يمارسونه بنجاح . ومؤسسات نظير مؤسسة Binswanger في كبروزلنجن (في الاراضي السويسرية) ومؤسسة Marciniowski في هولشتاين، هي وحدها التي فتحت ابوابها للتحليل النفسي . ويتولى اندفاع عن التحليل النفسي في برلين لك. ابراهام الذي هو من ابرز مثليه والذي كان فيما مضى مساعدا لبلولر . وقد يستغرب المرء ان يستمر هذا الوضع على ما هو عليه دونما تغيير منذ سنوات عديدة، اذا كان لا يعلم ان الصورة التي رسمناها لا تعبر الا عن المظهر الخارجي للاشياء . ويخطيء هذا المرء فيما لو بالغ في اهمية الموقف السلبي لمثلي العلم الرسميين ولدراء المؤسسات، وكذلك لأولئك الذين يؤلفون حاشيتهم . فمن الطبيعي ان يتكلم

= وكأنها تحقق شيئا فشيئا ، وقد انشئ مركز للثقافة التحليلية النفسية في كالكوفا (الهند البريطانية) . وفي اميركا الشمالية يدرس التحليل النفسي بجد وعمق يتجاوزان من بعيد شعبيته . وفي روسيا تواصل العمل التحليلي النفسي بنشاط ، في عدد كبير من المراكز ، منذ نهاية الثورة . وفي بولونيا تصدر في الوقت الراهن Polska Biblioteka Psychoanalityczna (المرآة) (Festschrift) عن مدرسة زاهرة للتحليل النفسي على يد فيرنزي . (انظر Zum 50. Geburtstag Von Dr S. Ferenczi).

«الكتاب التذكاري للذكرى الخمسين لولادة د. س. فيرنزي» . والبلدان الاسكندنافية هي التي تبدي اليوم اكبر التحفظ حيال التحليل النفسي (حاشية اضيفت سنة ١٩٢٣) .

الخصوم بعالي عقائريهم ، بينما يلزم الانصار غير المرتدي الفرائص رهبة جانب الهدوء . وقد اضطر عدد من هؤلاء الآخرين ، مما كانت مساهماتهم الاولى في التحليل حافلة بالوعود ، التي الانسحاب من الحركة تحت ضغط الظروف . بيد ان هذه الحركة تابعت شق طريقها في صمت ، مجتدة بين الاطباء النفسانيين وغير اهل الاختصاص على حد سواء اعدادا متجددة من المنتسبين ؛ وقد جذبت الى المنشورات التحليلية النفسية اعدادا متزايدة باستمرار من القراء ، فاضطرت الخصوم بالتالي الى مضاعفة وسائل هجومهم وتعزيزها . وكثيرا ما سنحت لي الفرصة في ابان الاعوام الاخيرة لأخذ علما ، وانا اطالع التقارير عن بعض المؤتمرات او عن جلسات بعض الجمعيات العلمية او عن بعض المنشورات التحليلية النفسية ، بان التحليل النفسي قد لفظ انفاسه الاخيرة ودحض بصورة نهائية . وبوسمي ان أقتدي ، ردا على مثل هذه الاعلانات ، بمثال مارك توين عندما قرأ في إحدى الصحف نبأ موته فوجه الى مديرها برقية يعلمه فيها ان «نبأ وفاتي مبالغ فيه» . فبعد كل اعلان من اعلانات الوفاة تلك ، كان التحليل النفسي يدل على حيوية اعظم من اي وقت سبق ، وعلى غنى اكبر بالانصار والمعاونين ، ويجهز نفسه بمزيد من وسائل التعبير . والحق ان الاعلان عن موت احدهم افضل في كثير من الاحوال من مقابلته بصمت الاموات .

بالتوازي مع توسع التحليل النفسي وانتشاره هذا فسي المكان ، كانت وجهات نظره تطبق على علوم اخرى ، بفضل دراسة ضروب العصاب والذهان . وان اتوقف عند هذا المظهر من مظاهر تطور علمنا : فهناك حول هذا الموضوع بحث سمتاز لرائك وساكن (ظهر في سلسلة grenzfragen للنوشتاين Lowenstein) يتضمن عرضا مفصلا لهذه المساهمات الجديدة للعمل التحليلي . بيد انه يجدر بنا القول اننا لا نملك بعد ، في

هذا المضمار ، سوى بدايات ومسودات ، بل في اكثر الاحيان مجرد مشاريع . واولئك الذين اعطي لهم ان يكونوا من العادلين في احكامهم لن يروا في هذا التقييم اي مأخذ . فعديدة هي المشكلات ، لكنه ضئيل للغاية عدد العاملين المستعدين لمواجهةها ، ناهيك عن ان اكثرهم مضطر الى تعاطي اشغال اخرى ، اشغاله الرئيسية ، ولا يتصدى للمشكلات التي تخرج عن نطاق اختصاصه الا بصفته من الهواة . وبالاصل ، ان هؤلاء العاملين الآتين الى التحليل النفسي لا يتقصدون اخفاء كونهم من الهواة ، اذ ان مطمحهم الوحيد دل الاختصاصيين على الطريق وتعيين مكانهم لهم وايضاؤهم باستخدام تقنيات التحليل النفسي ومسلماته ، يوم يعني لهم ان ينكبوا على العمل . وان تكن النتائج المحرزة حتى اليوم ليست ، بالرغم من كل شيء ، مما يستهان به ، فمرد ذلك ، من جهة اولى ، الى خصب المنهج التحليلي النفسي ، ومن الجهة الثانية ، الى وجود عدد من العلماء الذين نذروا انفسهم من الان ، ومن دون ان يكونوا في عداد الاطباء ، لتطبيقات التحليل النفسي على العلوم الانسانية .

وليس من العسير تخمين الامر : فاكثرت هذه التطبيقات يرتبط بأعمال التحليلية الاولى . فقد كشف الفحص التحليلي للعصابيين وتحليل الاعراض العصابية للأفراد الاسوياء عن وجود شروط سيكولوجية لا ينحصر مدلولها بالمضمار الذي اكتشفت فيه . هكذا ازاح لنا التحليل النفسي ، في معرض تفسيره للظواهر المرضية ، النقاب عن الروابط التي تربط هذه الظواهر بالحياة النفسية السوية ، وكذلك عن الصلات القائمة بين الطب النفسي وسائر العلوم المعنية بقدر او بآخر بدراسة النشاط النفسي . على هذا المنوال قدمت بعض الاحلام النمطية ، مثلا ، تفسيراً لبعض الاساطير والحكايا . وبسلوكهما هذا الطريق ، كان ركلن Ricklin وبراهاام سابقين الى دراسة الاساطير ، هذه الدراسة التي توجهها رانك بأبحاثه عن الميتولوجيا ، الملبية على أتم وجهه

لجميع مقتضيات هذا الفرع العلمي الخاص . ومع تعميق دراسة رمزية الاحلام برزت مشكلات ذات صلة بالميثولوجيا والفولكلور (جونز ، ستورفر Storfer) والتصورات الدينية . وانسي لأذكر الانطباع العميق الذي ساور أعضاء مؤتمر التحليل النفسي وهم يستمعون الى تلميذ ليونغ يسلط الضوء على التشابهات القائمة بين الانشاءات الخيالية للفصامين وبين اساطير نشأة الكون لدى الشعوب والازمنة البدائية . وقد وجدت المواد التي قدمتها الميثولوجيا اعادة بناء مثيرة للاهتمام ، وان اكثر قابلية للنقاش ، في كتابات يونغ الرامية الى اقامة صلة بين التظاهرات العصبية من جهة اولى ، وبين ابداعات الخيال في المضامين الدينية والميثولوجي من جهة ثانية .

وأفضى استكشاف الاحلام ، عن طريق آخر ، الى تحليل الابداعات الشعرية اولا ، ثم الى تحليل الشعراء والفنانين انفسهم . وكانت المعايير الاولى ان الاحلام التي يتخيلها الشعراء تسلك في كثير من الاحيان ، اراء التحليل ، مسلكا ممانلا للاحلام الحقيقية (غراديغا) (١٦) . وأفسح تصور النشاط النفسي اللاواعي في المجال لتكوين فكرة اولى عن طبيعة الابداع الشعري . وفتحت الدوافع الفريزية ، التي اضطررنا الى الاعتراف بدورها في تشكيل الاعراض العصبية ، المنافذ الى منابع الخلق الشعري ؛ وكانت المسائل التي انطرحت عندئذ هي معرفة رد فعل الفنان على هذه الدوافع الفريزية وما الثوب الذي يلبسه لردود فعله (انظر رانسك : Der Kunstler (١٧) ؛ وتحاليل سادجر Sadger

١٦ - غراديغا : رواية قصيرة للكاتب الالمانى بنسن ، حللها فرويد في كتابه الهديان والاحلام في الفن (دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٨) . -م-

١٧ - الفنان . -م-

ورايك Reik وغيرهما للشعراء ؛ وكتيبي عن ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي (١٨) ؛ وتحليل ابراهام لسيغانتي (١٩) . وبالنظر الى ان معظم المحللين يهتمون بمسائل ذات صفة عامة ، فقد أسهموا بأبحاثهم في حل تلك المشكلات التي هي ، من بين سائر المشكلات التي تصلح لتطبيقات التحليل ، أدعاها الى الاغراء . وغني عن البيان انه كان لا بد ، في هذا المضمار ايضا ، ممن التصدي لمعارضة اولئك الذين لم يطلعوا على التحليل النفسي ، ومن مواجهة نفس اشكال سوء الفهم وحملات الاستهجان المسعورة التي قوبل بها التحليل النفسي في مضماره الخاص بحصر المعنى . ولقد كان يسمع المرء ، بالفعل ، ان يتوقع ان يتعرض التحليل النفسي ، حيثما حاول الدلوف ، لهجمات اصحاب الشأن والقيمين على الامر . لكن لا بد من القول ، على كل حال ، ان المحاولات الاقترامية للتحليل النفسي لم توقظ بعد في كل مكان اهتماما متماثلا ، وان ثمة صراعات اخرى تنتظره مستقبلا . ومن بين التطبيقات العلمية الصارمة للمنهج التحليلي على النقد الادبي يجدر بنا ان نخص بالذكر مؤلف رانك الاساسي عن حب المحارم ، وهو مؤلف ينتظره بكل تأكيد استقبال لن يكون بحال من الاحوال وديا . اما تطبيقات التحليل النفسي على اللغة والتاريخ فما تزال ضئيلة التعداد . وقد كنت اول من حاول ، في سنة ١٩١٠ ، التطرق الى المشكلات المرتبطة بعلم النفس

-
- ١٨ - نشرت الترجمة العربية لكتاب فرويد : ذكرى من طفولة ليوناردو دافنشي ، بالاضافة الى دراسته عن دستوفسكي ، في كتاب واحد بعنوان التحليل النفسي والفن ، ترجمة سمير كرم ، دار الطليعة ، بيروت (الطبعة الاولى ، نيسان ١٩٧٥) . -م-
- ١٩ - جيوفاني سيغانتي : رسام ايطالي (١٨٥٨ - ١٨٩٩) ، رسم مشاهد جبلية بأسلوب تقيمي . -م-

الديني، من خلال التشابه الذي أثبت وجوده بين الطقوس الدينية وطقوس العصابيين . وقد حاول د. بفستر Pfister ، وهو راع في زوريخ ، في كتابه عن ورع كونت زرنندورف (٢٠) (وفي تأليف أخرى) ، ان يربط الهواجس الدينية بالايروسية المنحرفة ؛ ونلاحظ في آخر ابحاث مدرسة زوريخ مجهودا يرمي، من قبيل المعارضة المقصودة ، الى اقحام تصورات دينية على التحليل .

في الفصول الاربعة التي يتألف منها كتابي الطوطم والحريم ، حاولت ان اطبق النهج التحليلي على مشكلات ذات صلة بعلم نفس الشعوب ، تعيدنا في الزمن الى اصول اهم مؤسسات حضارتنا : التنظيم السياسي والاخلاق والدين ، وكذلك تحظر حب المحارم وتوبيخ الضمير . قالى اي حد ستقاوم الفرضيات التي خيل الي ان بمقدوري صياغتها بصدد هذا الموضوع هجمات النقد ؟ هذا ما يتعذر التكهن به في الوقت الحاضر .

يمثل كتابي عن النكتة اول محاولة لتطبيق النهج التحليلي على مسائل من علم الجمال . وهذا ، في الحق ، مضمار لم يتم سبره بعد ، وهو يعد عاملي الغد باكتشافات ثرة . ونحن نفتقر الى علماء متخصصين في الفروع المناظرة لهذه المسائل ، وانما طلباً لمعوتهم اسس هانس ساكس Sachs مجلة إيمافو Imago التي يديرها منذ عام ١٩١٢ بالتعاون مع رانك . وقد دشّن هتشان Hirschmann وفون فنترشتاين Winterstein في هذه المجلة التفسير التحليلي النفسي للمذاهب والشخصيات الفلسفية ، من خلال ابحاث نتمنى لو قيض لها الاستمرار والمزيد

٢٠ - نيقولاوس لودفيغ فون زرنندورف : نبيل ومترهب الماني ، مجدد رهبانية الاخوة الورافيين (١٧٠٠ - ١٧٦٠) . -م-

من التبحر .

ان الاستنتاجات الثورية التي تراءى للتحليل النفسي انسه
مستطيع صياغتها بصدد حياة الطفل النفسية ، والدور الذي
تلعبه فيها الحفريات الجنسية (فون هوغ - هلموث - V. Hug
Hellmuth) ، والمصير المقيض للعناصر المكونة للجنسية ،
وهي العناصر التي لا تعود صالحة للاستعمال بهدف الانجاب ، ان
هذه الاستنتاجات الثورية قد جذبت اليها بالضرورة انتباه علماء
التربية وشجعهم على محاولة تطبيق وجهات النظر التحليلية
النفسية على التربية . ولقد كان من فضل السيد الراعي بفستر
انه قام بهذه المحاولة بحماسة صادقة ، وانه اراد ان يشاطره
حماسه هذه جميع المربين ، وجميع اولئك الذين يتحملون
مسؤولية النفوس (Die Psychoanalytische Methode, 1913)
(٢١) . ولقد أفلح على كل حال في كسب تأييد عدد
كبير من المربين السويسريين . وقد أثر بعض زملائه ان يقولوا ،
بداعي الحذر ، بعيدا عن الاضواء، وان صرحوا بمشاطرتهم آراءه .
ويبدو ان بعض المحللين الفيناويين هجروا التحليل النفسي لصالح
نوع من علم التربية الطبية (آدлер Adler وفورتمولر Fortmuller
(Heilen und Bilden, 1913) (٢٢) .

لقد حاولت ، في هذا التعداد غير الكامل ، ان ابرز للعيان
الوشائج العديدة القائمة بين التحليل النفسي الطبي وبين فروع
اخرى من العلم . والحق ان ثمة عملا ينتظر جيلا بكامله من
الباحثين ، واني لعلى يقين بأن هذا العمل لن يكون في المستطاع
التصدي له وانجازه على الوجه الواجب الا متى ما انتهت

٢١ - النهج التحليلي النفسي . -م-

٢٢ - الشفاء والتاهيل . -م-

المقاومات التي يصطدم بها التحليل النفسي في مسقط رأسه بالذات (٢٣) .

لن يكون عملنا الا عقيما وفائتا أواته فيما او عرضنا هنا تاريخ هذه المقاومات . وليس في هذا التاريخ ما يدعو الى التباهي بالنسبة الى ممثلي العلم في زمننا الحاضر . بيد انني احرص على ان اضيف القول انه لم يخطر لي ببال ان اعدّ خصوم التحليل النفسي اناسا جديرين بالازدراء ، جميعهم بلا تمييز ، لمجرد أنهم خصوم ، ما خلا بعض الدجالين الساقطين والمصطادين في المياه العكرة ، ممن لا يخلو منهم كلا المعسكرين . ولقد كنت قادرا على تفسير موقف هؤلاء الخصوم ، وكانت التجربة قد علمتني فضلا عن ذلك ان التحليل النفسي يصعد الى السطح اسوأ ما فسي الانسان . لكنني كنت قد اتخذت قرارا بعدم الرد، وقد استخدمت كل نفوذي لردع الآخرين عن الانخراط في حرب كلامية . وكانت فائدة المناقشات العامة او على صفحات الصحف تبدو مشكوكا فيها للغاية ، بالنظر الى الشروط الخاصة التي يدور فيها الصراع تأييدا للتحليل النفسي او معاداة له ؛ وكنا على يقين دوما بأن الغالبية في المؤتمرات واجتماعات الجمعيات ستقف ضدنا ، وما كنت أسرف في وضع ثقتي في نبل مشاعر خصومي وجههم للعدل . وتدل المشاهدة المباشرة على ندرة الاشخاص القادرين على التزام جانب التهذيب او الموضوعية على الاقل في اثناء النقاش العلمي ، وما كان لي ان افكر بهذا النوع من المشاحنات من دون ان ينتابني الاشمئزاز . هذا الموقف الذي خيل الي انه من واجبي ان اقفه قد أسيء تفسيره على الأرجح ؛ فقد تصور المتصورون انني

٢٣ - انظر ايضا مقالي المنشورين في Scientia (المجلد الرابع عشر ، ١٩١٢) : حول الاهتمام بالتحليل النفسي .

طيب القلب الى حد الضعف او انني خائف الى حد يبيح لهم الا يحسبوا حسابا لي . وهذا خطأ منهم ، لانني استطيع بدوري ان استشيط غضبا وان اشتم ، مثلي مثل غيري ، لكنني انفر من اعطاء تعبير ادبي للمشاعر التي تضطرم في اعماق نفسي واوتر ان ابقى ملتزما جانب الاستنكاف التام .

لعلي حسنا كنت سافعل ، من وجهة نظر ما ، لو اطلقت العنان لاهوائي ولاهواء معشر من حولي . وقد سمعنا جميعا بالنظرية التي حاولت ان تفسر التحليل النفسي بالشروط الخاصة المميزة للوسط الفييناوي . وهي في الحق نظرية مثيرة للاهتمام، لم يحجم جانيه عن استخدامها حتى في عام ١٩١٣ ، على الرغم من انه فخور بكل تأكيد بكونه باريسيا وعلى الرغم من ان باريس لا تملك من حق في ان تعتبر نفسها متفوقة على فيينا من وجهة نظر النقاء الخلقي . تزعم هذه النظرية ان التحليل النفسي ، وعلى وجه الخصوص التوكيد الذي ينص على ان الاعصبة مرتبطة باضطرابات في الحياة الجنسية، ما كان ليري النور الا في مدينة كفيينا ، في جو من الشهوانية والفساد الاخلاقي لا تعرفه مدن اخرى ، وانه يمثل فقط صورة ، بل قل الاسقاط النظري لهذه الظروف الخاصة المميزة للوسط الفييناوي . والحال انني لم اكن في يوم من الايام وطنيا محليا ، لكنني استسختف هذه النظرية من البداية وكدت اسلم اكثر من مرة بان ذلك المأخذ الموجه الى الوسط الفييناوي ما هو الا تورية غرضها موارأة مأخذ آخر لا يجرو أصحابه على الجهر به على الملا . والحق ان المناقشة غير ممكنة ما لم تتحقق شروط معاكسة . لنفترض انه توجد مدينة يفرض سكانها على انفسهم قيودا خاصة من منظور تلبية الحاجات الجنسية ويظهرون في الوقت نفسه قابلية مفرطة للاصابة بالاعصبة : ففي حال كهذه الحال يمكن ان تراود المراقب فكرة الربط بين هاتين الواقعتين وتفسر واحدهما بالاخري . ولكن ليس في فيينا شيء من هذا القبيل . فما الفييناويون بأكثر

تعففا ولا اكثر عصابية من سكان اية مدينة كبيرة اخرى . وكل ما هنالك ان العلاقات بين الجنسين اكثر تحررا فيها بمقدار طفيف مما في مدن الشمال والغرب الفخورة بتزمتهما ، كما انها اقل تحرزا من هذه الاخيرة . وخصائص الوسط الفينايوي هذه قيمة بأن تضلل مراقبنا المفترض اكثر منها صالحة لتقديم تفسير إتيولوجي للاعصبة له .

على ان مدينة فيينا فعلت كل ما في استطاعها لتوحي بأنه لم يكن لها من ضلع في ولادة التحليل النفسي . ففي اي مكان آخر من العالم لم تعامل الاوساط المثقفة والعلمية المحللين بمثل تلك اللامبالاة العدائية السافرة .

لعل تبعة ذلك تقع جزئيا على نفوري من الدعاية . فلو شئت او قبلت ان تعقد حول التحليل النفسي ، في جمعيات فيينا الطبية ، جلسات عاصفة ، يطلق فيها العنان للاهواء كافة وتنهل فيها على الرؤوس المآخذ والشتائم ، فلربما كانت سحبت اليوم الآراء المسبقة المناهضة للتحليل النفسي ، ولربما ما كان هذا الاخير بقي غريبا في المدينة التي رأى فيها النور . لكن شيئا من هذا لم يحدث ، وكما يقول الشاعر على لسان فالنشتاين Wallenstein : «لم يففر لي الفييناويون كوني قد حرمتهم من مشهد مسرحي» (٢٤) .

ان افهام خصوم التحليل النفسي ، بأقصى ما يمكن من المجاملة ، ما ينطوي عليه موقفهم من جور وعسف ، ما كان بالهمة

٢٤ - فالنشتاين : ثلاثة مسرحية كتبها شيلر سنة ١٧٩٨ - ١٧٩٩ ، واستوحاها من حياة ألبريخت فالنشتاين ، القائد الذي حارب اثناء حروب الثلاثين عاما تحت امرة امبراطور النمسا ، لكنه طمعا في تاج بوهيميا فاوض العدو ، فجرى اغتياله بأمر من الامبراطور . -م-

التي استطيع انا اداها . لكن بلولر هو الذي تكفل بها سنة ١٩١١ في كتابه Die Psychoanalyse Freuds Verteidigung und Kritisches Bemerkungen (٢٥) واوفى بها على نحو يستاهل كل تقدير . وكيل الشناء لهذا العمل ، الذي يسدد فيه مؤلفه انتقاداته الى كلا الطرفين ، أمر طبيعي جدا من جانبي ، الى حد انني سأسارع الى الجهر بماخذي عليه . فانا اجد انه لا يخلو من بعض التحيز ، لان مؤلفه يفرط في تسامحه ازاء اخطاء الخصوم واغلاطهم ، ويفلو في صرامته ازاء نظائرها عند الانصار . وهذا ما يفسر في رأيي ان يكون الحكم الذي صدر عن طبيب نفسي من مستوى بلولر ، عن عالم مثله لا يرقى الشك الى كفاءته واستقلاله الفكري ، قد بقي بلا تأثير البتة على زملائه . وانا بكل تأكيد لن اضيف شيئا الى علم مؤلف الانفعالية (١٩٠٦) لو قلت له ان التأثير الذي يمارسه عمل ما ليس رهنا بقيمة الحجج التي يشتمل عليها بقدر ما هو منوط بطبيعة لهجته الانفعالية . اما التأثير الذي كان يمكن لبلولر ان يمارسه ، لا على الاطباء النفسيين الخالص ، وانما على انصار التحليل النفسي ، فقد بدده بنفسه في وقت لاحق عندما كشف في كتابه Kritik Der Freudschen theorie (١٩١٣) عن الوجه الآخر لموقفه من التحليل النفسي . ففي هذا المؤلف لم يترك الا اقل القليل قائما من بنيان النظرية التحليلية النفسية ، مما اثلج صدور خصوم هذه النظرية الذين اغتبطوا ، ولا بد ، بما اتاهم به من مدد . والحال ان بلولر ، في الادانات التي صدرت عنه ، لم يتذرع بحجج جديدة او بملاحظات جديدة ، بل اعتمد على مستوى معرفته الشخصية بالموضوع ، هذه المعرفة التي ما عاد يفكر اليوم ، خلافا لما فعله في كتاباته السابقة ، بالاعتراف

٢٥ - التحليل النفسي الفرويدي ، دفاع وملاحظات نقدية . -م-

٢٦ - نقد النظرية الفرويدية . -م-

بنقصها وعدم كفايتها . والحق ان التحليل النفسي كان مهددا هذه المرة بأن يمتنى بخسارة مؤلة . لكن بلولر ، في آخر مؤلفاته (Die Kritiken Der Schizophrenie) (٢٧) (١٩١٤) ، وهو المؤلف الذي أخذ فيه عليه انه أدخل التحليل النفسي الى كتاب عن الفصام ، يحتمي بما يسميه هو نفسه بـ «الاعتداد» ، فيقول : «لقد قر قراري على ابداء اعتدادي بنفسي : فأنا أقدر ان جميع علوم النفس التي اقترحت علينا الى يومنا هذا لتفسير الروابط التي تربط الاعراض والامراض النفسية المنشأ بعضها ببعض قد اخفقت في مهمتها، بينما يؤلف علم نفس الاعماق Tiefenpsychologie جزءا من علم النفس الذي ما يزال مطلوبا انشاؤه والذي يحتاج اليه الطبيب ليفهم مرضاه ويعالجهم عقلانيا . بل اني لأعتقد بأنني ، في كتابي عن الفصام ، قد خطوت خطوة (وان لم تحظ بالتقدير بعد) نحو هذا الفهم . والتصريحان الأولان هما بكل تأكيد صحيحان ؛ لكن ليس من المتعذر ان اكون قد ارتكبت خطأ بإدلائي بهذا الاخير» .

وبما ان «علم نفس الاعماق» لا يعني شيئا في واقع الحال سوى التحليل النفسي ، ففي مقدورنا راهنا ان نكتفي بهذا الاقرار .

« عليك بالإيجاز ، فما يوم الدينونة
إلا قبض ربح » .

غوته

بعد سنتين من المؤتمر الخاص الاول للمحللين النفسيين ،
انعقد المؤتمر الثاني في نورمبرغ هذه المرة (آذار - ١٩١٠) . وفي
الفترة الفاصلة ما بين هذين المؤتمرين ، وتحت تأثير الاستقبال
الذي قوبلت به في اميركا ، وإزاء العداء المتزايد الذي كان يواجهه
به التحليل النفسي في اقطار اللغة الالمانية والمدد اللامتوقع الذي
جاءه من زورينخ ، كنت قد صممت مشروعا ، وافلحت ، في
اثناء ذلك المؤتمر الثاني ، في وضعه موضع التنفيذ بمساعدة
صديقي س. فيرنزي . وكان هذا المشروع يرمي الى تزويد
الحركة التحليلية النفسية بتنظيم ، والى نقل مركزها الى زورينخ ،
والى إيكال قيادتها الى قائد قادر على تأمين مستقبلها . وبالنظر
الى ما اثاره هذا المشروع من اعتراضات كثيرة من قبل انصاري ،

فسوف أعرض هنا دوافعه بشيء من التفصيل . وأملني أن أفلح في تبرير موقفي ، حتى ولو حكم القارئ بأن فكرتي ما كانت مناسبة .

لقد كان تراءى لي أن الإبقاء على مركز التحليل النفسي في فيينا لا يمكن إلا أن يعيق الحركة بدلا من أن يسرها . وكانت مدينة كزوريخ ، تقع في قلب أوروبا وفيها افتتح استاذ جامعي معهدا للتحليل النفسي ، تبدو لي مهية أكثر من غيرها لاداء دور مركز الحركة التحليلية النفسية . وقد قلت بيني وبين نفسي ، علاوة على ذلك ، أن ثمة عقبة أخرى تكمن في شخصي بالذات : اذ كانت محاباة الانصار وكرهية الخصوم قد شوهتاه الى درجة بات متعذرا معها تعرفه على حقيقته . ولئن كان بعضهم قد شهني بكوني وداروين وكبار ، فقد عاملني بعضهم الآخر بكل بساطة على أنني مصاب بشلل عام . ولهذا اردت ان اتحى جانبا وابتعد عن الاضواء ، مثلما اردت ان ابتعد بالتحليل النفسي عن المدينة التي رأى النور فيها . ثم انني ما عدت أحس بأنني في مستقبل من العمر ، ولما كنت أرى انه ما يزال أمامي طريق طويل ، فقد كنت انظر بهمة فائرة وعزيمة مشبطة الى القادم من أيامي التي سيتوجب علي فيها ، وأنا ما أنا فيه من كهولة ، أن اتولج بدور القائد والمرشد . ومع ذلك فإن القائد ضروري ، هذا ما كنت اردده بيني وبين نفسي . كنت أعلم جيد العلم ما الاخطاء التي تترصد أولئك الذين يتعاطون التحليل النفسي ، وكنت آمل ان يتم تحاشي قدر كبير من هذه الاخطاء فيما لو وجدت سلطة مؤهلة لان تنصح وتحذر . وكانت هذه السلطة قد وقعت على عاتقي في بادئ الامر ، لما لي من سبق ادين به لخمس عشرة عاما من التجربة . وقد تطلعت الى نقل هذه السلطة الى رجل اقل تقدما مني في السن ، بحيث يتم تعيينه خلفا لي بصورة طبيعية بعد وفاتي . هذا الرجل ما كان يمكن الا ان يكون ك.غ. يونغ ، لان بلولر كان

في مثل سني ، وكان من مزايا يونغ ، من جهة أخرى ، تعدد مواهبه ، ومساهماته التي سبق له الاسهام بها في التحليل النفسي ، ومركزه المستقل ، ومقدرته الاكيدة التي كانت تفرض نفسها على كل من يقربه . وكان يبدو عليه ، ناهيك عن ذلك ، الاستعداد لعقد اواصر صداقة معي ولفض النظر تجاهي عن الاحكام العرقية المسبقة التي كان من معتنقها الى ذلك الحين . وما كان لي ان اتوقع ، ازاء كل ما كان يشهد لصالحه ، ان يتضح ان اختياري كان في غير محله لانه وقع على شخص عاجز عن تحمل سلطة شخص آخر واشد عجزا ايضا عن فرض سلطته على الآخرين ، شخص يبذل طاقته كلها في ملاحقة مصالحه الشخصية دونما اي اعتبار آخر .

كنت قد ارتأيت وجوب الاخذ بشكل رابطة رسمية ، تعاشيا للتجاوزات التي يمكن ان ترتكب باسم التحليل النفسي ما ان تتوطد شعبيته . كان من الضروري ان يوجد مركز له سلطة الاعلان عن ان كل تلك السخافات لا تمت بصلة الى التحليل النفسي ، وانها ليست من التحليل النفسي في شيء . أما الجماعات المحلية التي كانت ستألف منها الرابطة الدولية فرسالتها تعليم طريقة مزاولة التحليل النفسي وتأهيل الاطباء ، بحيث تكون هي الضامنة لكفاءتهم . وكنت أرغب أيضا في ان تقوم بين انصار التحليل النفسي علاقات صداقة وتآزر ، ردا على اللعان الذي كان العلم الرسمي قد استنزله على التحليل النفسي وعلى مقاطعة الاطباء الممارسين للتحليل النفسي والمؤسسات التي يزاول فيها .

لهذا ، ولا لاي شيء آخر ، كنت أرغب في قيام **الرابطة الدولية للتحليل النفسي** . لكن ذلك كان يتجاوز في أغلب الظن حدود ما هو قابل للتحقيق . وكما وجد خصومي انفسهم مكرهين على الاعتراف باستحالة احتواء هذه الحركة ، كذلك كان لزاما

علي بدوري ان أنتهي الى التحقق من استحالة توجيه هذه الحركة في الوجهة التي كنت أريد تعيينها لها . صحيح أن اقتراح فيرنزي جرى الاخذ به في نورمبرغ ، وأن يونغ ، بعد ان سمي رئيسا ، اختار ركلن أمينا للسر . ثم انه تقرر ، فضلا عن ذلك ، اصدار «صحيفة مراسلة» ، الغرض منها تأمين الاتصال بين التجمع المركزي والجماعات المحلية . كما جرى الاعلان عن ان هدف **الرابطة** «دراسة وتطوير العلم التحليلي النفسي الذي أسسه فرويد ، سواء امن حيث انه علم نفس ام في تطبيقاته على الطب والعلوم المعنوية» ، و«تشجيع تبادل المساعدة بين اعضائها في جهودهم لحيازة المعارف التحليلية النفسية ونشرها» . غير ان الفييناويين قابلوا المشروع بمعارضة عنيفة . وعبر أدلر ، بعبارة محتدمة ، عن خشيته من ان تقوم على الحرية العلمية رقابة تقيدها . ولكن الامر انتهى بـ «الفييناويين» الى تأييد المشروع ، بل بعد ان استحصلوا على ان يكون مركز الرابطة لا في زوريخ ، بل حيث يكون مكان اقامة الرئيس الذي كان يفترض ان ينتخب لمدة سنتين .

في اثناء المؤتمر بالذات تكونت ثلاث مجموعات محلية : مجموعة برلين ، برئاسة ابراهام ، ومجموعة زوريخ التي وضع رئيسها على رأس القيادة المركزية للرابطة ، ومجموعة فيينا التي تخلت عن قيادتها لأدلر . وما امكن لمجموعة رابعة ، هي مجموعة بودابست ، أن تتكون الا لاحقا . كما ما امكن لبلوار حضور المؤتمر نظرا الى مرضه ؛ وقد ثارت بعض اعتراضات مبدئية على دخوله الى الرابطة ، لكن جرى تنسيبه في نهاية المطاف بعد تدخلني الشخصي ، الا انه عاد فخرج منها على اثر خلافات نشبت في زوريخ . وبذلك انفصمت الصلة التي كانت تربط مجموعة زوريخ المحلية بمؤسسة بورغولزلي .

كان من النتائج الاخرى لمؤتمر نورمبرغ تأسيس مجلة

Zentralblatt Fur Psychoanalyse (١) التي تولى ادارتها
آدler وشتيكل . وكان لهذه المجلة في الظاهر ميل الى المعارضة
في بادىء الامر ، وقد دافعت عن هيمنة فيينا التي بدا انتخاب
يونغ وكأنه يضعها موضع تهديد . لكن لما جاءني مديرا المجلة
- وقد تعذر عليهما ايجاد ناشر - يطمئنانني الى نياتهما السلمية
باقرارهما لي سلفا بحق النقض فيما يتعلق بمقالاتهما ، قبلت بأن
اتكفل باصدار هذه الدورية التي ظهر عددها الاول في ايلول ١٩١٠
والتي شاركت فيما بعد مشاركة فعالة في تحريرها .

سأتابع الان تاريخ المؤتمرات التحليلية النفسية . فثالثها
قد انعقد في فايمار في ايلول ١٩١١ ، وتجاوز المؤتمرين الاولين
من حيث قوامه وأهميته العلمية . وقد اعرب ج. بوتنام ، الذي
حضر هذا المؤتمر ، لدى عودته الى اميركا ، عن رضاه واحترامه
للموقف المعنوي (٢) لمن شاركوا فيه واستشهد بالحكم الذي قال
انني اصدرته عليهم : «لقد تعلموا ان يتحملوا الحقيقة» (٣) .
وبالفعل ، ان جميع اولئك الذين اعتادوا على حضور المؤتمرات
العلمية ما استطاعوا الا ان يخرجوا بانطباع ايجابي عن اجتماع
المحللين النفسيين ذلك . ولما كنت انا الذي تولى ادارة المؤتمرين
الاولين ، فقد منحت يومئذ كل واحد الزمن المطلوب لالقاء كلمته ،

١ - المجلة المركزية للتحليل النفسي . -م-

٢ - بالانكليزية في النص . -م-

3 — On Freud's Psycho - Analytic Method And its
Evolution. «Boston Medical And Surgical Journal» , 25
Jan. 1912.

(حول منهج فرويد التحليلي النفسي وتطوره ، في مجلة بوسطن الطبية
والجراحية ، ٢٥ كانون الثاني ١٩١٢) .

وتركت المناقشة تتخذ شكل تبادل حميم للأفكار . اما يونغ ،
الذي ترأس مؤتمر فايمار ، فقد ترك المناقشة تحتدم اثر كل
مداخلة ، الامر الذي لم تترتب عليه محاذير جلى في تلك
الفترة .

لكن الامور جرت غير هذا المجرى في المؤتمر الرابع السذي
انعقد في ميونيخ في ايلول ١٩٥٣ والذي ما تزال ذكراه حية في
اذهان كل من شارك فيه . وقد ترأسه يونغ الذي لم يدل على
قدر كافٍ من الكياسة واللباقة ؛ فأصحاب الكلمات ما اعطوا الا
وقتا محددا ، وبالمقابل فان المناقشات ما كانت ، لطولها ، الا
لنعم على المداخلات الاساسية . وقد شاعت المصادفة، التي كثيرا
ما ترتب الامور على نحو لا يخلو من خبث ، ان يختار هوش
Hoche السيء النية مسكنه في نفس البيت الذي كان المحللون
يعقدون فيه اجتماعاتهم . وهكذا امكن له ان يقتنع الى اي حد
كان باطلا تعريفه للمحللين النفسيين بانهم «شعبة متعصبة من صناعة
لامر رئيسها» . وبعد مفاوضات شاقة ولا تدعو الى الاغتراب ،
اميد انتخاب يونغ رئيسا للرابطة الدولية للتحليل النفسي ، وهو
منصب لم يتردد في قبوله بالرغم من ان خمسي المقترعين حجبا
عنه ثقتهم . وهكذا تفرق شمل المجتمعين ، دونما رغبة كبيرة في
معاودة اللقاء .

كان تركيب الرابطة الدولية للتحليل النفسي ، في زمن
المؤتمر ، كالتالي : كانت مجموعات فيينا وبرلين وزوريخ المحلية
قد تكونت منذ مؤتمر نورمبرغ (١٩١٠) ؛ وفي ايار ١٩١١
تأسست مجموعة في ميونيخ برئاسة د. ل. سيف Seif ؛
وفي مجرى العام نفسه تألفت اول مجموعة محلية اميركية باسم :
the New York Psychoanalytic Society (١)، وبقيادة بربل .

وفي اثناء انعقاد مؤتمر فايمار تمت الموافقة على تأسيس مجموعة امريكية ثانية ، وتشكلت بالفعل في مجرى العام التالي باسم : American Psychoanalytic Association (٥) وضمت اعضاء يقيمون في كندا ومناطق شتى من اميركا ، وتولى رئاستها ج. بوتنام وامانة سرها إ. جونز . وقبيل مؤتمر ميونيخ (١٩١٣) تأسست مجموعة بودابست المحلية برئاسة فيرنزي . وبعيد هذا المؤتمر أسس جونز - وقد قدم للاقامة في لندن - اول مجموعة انكليزية . وغني عن القول اننا اذا شئنا تكوين فكرة دقيقة عن الاهمية العددية لاتباع التحليل النفسي وأنصاره ، فلا بد من ان نأخذ في حسابنا ايضا اولئك الذين ما كانوا ينتسبون - وهم كثرة - الى اي من تلك المجموعات المحلية الثماني .

يستاهل تطور الادب التحليلي النفسي الدوري هو الآخر اشارة مقتضبة . فأول نشرية وضعت في خدمة التحليل النفسي كان عنوانها Schriften zur Angewandten Seelenkunde (٦) . وكانت عبارة عن نشرية تصدر على فترات غير منتظمة ابتداء من عام ١٩٠٧ . وقد ظهرت في هذه السلسلة ابحاث لفرويد (العددان ١ و ٧) ، وركلن ، ويونغ ، وابراهام (العددان ٤ و ١١) ، ورائك (العددان ٥ و ١٣) ، وسادجر ، وبفستر ، وم. غراف graf وجونز (العددان ٥ و ١٤) ، وستورفر ، وفون هوغ - هلموث (٧) . وجاء تأسيس مجلة ايماغو imago ، التي ستحدث عنها لاحقا ، ليلحق بعض الاذى بذلك الشكل من أشكال النشر . وعقب اجتماع سالزبورغ (١٩٠٨) تأسست -JahrBuch Fur Psychoa-

٥ - الرابطة الامريكية للتحليل النفسي . -م-

٦ - اوراق في علم النفس المختص . -م-

٧ - في السلسلة نفسها ظهرت لاحقا ابحاث لسادجر (المسدد ١٦ و ١٨)

وكيلهور (العدد ١٧) .

nalytische und Psychopathologische Forschungen (٨) . وقد بقي يونغ رئيساً لتحريرها لمدة ٥ سنوات ؛ ثم عاودت صدورها بإدارة جديدة وبعنوان معدل بعض الشيء : **JahrBuch Der Psychoanalyse** (٩) . وبعد أن كانت عبارة عن ملف مفتوح للابحاث التعليمية ، صار هدفها تسليط الاضواء على الاهمية والامكانيات التطبيقية لجميع طرائق التحليل النفسي ولجميع منجزاته .

اما مجلة **Zentralblatt Fur Psychoanalyse** ، التي صمم مشروعها أدلر وشتيكل عقب تأسيس **الرابطة الدولية** (نورمبرغ ١٩١٠) ، فما عرفت الا وجودا مقلّلا . فالعدد العاشر من المجلد الاول اعلن ، على الصفحة الاولى ، انه بالنظر الى الخلاف العلمي ، الذي نشب بين د. ألفريد أدلر والناشر ، اتخذ الاول قرارا بالانفصال بمحض ارادته عن التحرير . وهكذا بقي د. شتيكل المحرر الوحيد لها (صيف ١٩١١) . وفي مؤتمر فايما ، رفعت **Zentralblatt** الى مقام اللسان الرسمي **للرابطة الدولية** ، وتقرر ارسالها الى جميع اعضاء هذه **الرابطة** ، على أن يُرفع رسم الاشتراك السنوي . وبدءا من العدد ٣ من السنة الثانية (شتاء ١٩١٢) صار شتيكل المحرر المسؤول الوحيد عن مضمون الابحاث المنشورة في الـ **Zentralblatt** . ونظرا الى موقفه ، الذي لا يسعني الكلام عنه جهارا ، اضطرت الى التخلي عن دوري كناشر والى المبادرة الى تزويد التحليل النفسي على عجل بناطق جديد بلسانه : **internationale Zeitschrift Fur Arztliche Psychoanalyse** (١٠) . وبفضل جهود جميع

٨ - المجلة السنوية للبحوث في التحليل النفسي وعلم النفس المرضي . -م-

٩ - حولية التحليل النفسي . -م-

١٠ - المجلة الدولية للتحليل النفسي الطبي . -م-

المساهمين تقريبا ، وكذلك بفضل جهود الناشر الجديد ، هـ. هيلر Heller ، امكن للمدد الاول من هذه الدورية ان يصدر في كانون الثاني ١٩١٣ ، كما امكن لها ان تفرض نفسها لسانا رسميا **للرابطة الدولية للتحليل النفسي** ، بدلا من ال Zeitschrift .
في اثناء ذلك ، أسس الدكتور هانس ساكس والدكتور
اوتو رانك ، في بحر عام ١٩١٢ ، مجلة جديدة ، هي **ايمافو** ،
المخصصة فقط لتطبيقات التحليل النفسي على العلوم المعنوية .
وقد حظيت ايمافو باهتمام متعاظم ، وتابعها حتى القراء الغرباء
عن التحليل الطبي بحصر المعنى (١١) .

بالاضافة الى هذه الدوريات الاربع (اوراق في علم النفس
المختص ، **الحولية** ، **المجلة الدولية** ، **ايمافو**) نشرت دوريات المانية
واجنبية اخرى ابحاثا تستأهل التصنيف في عداد الادب التحليلي
النفسي . فمجلة Journal of Abnormal Psychology (١٢)
التي يصدرها مورتون برانس Prince ، تشتمل بصفة
عامة على ابحاث تحليلية ممتازة تجعل منها المثل الرئيسي للادب
التحليلي الاميركي . وفي شتاء ١٩١٣ انشأ وايت White
وجيليف Jelliffe ، من نيويورك ، مجلة موقوفة على
التحليل النفسي (the Psycho - Analytic Review) (١٢) وهي
مجلة كانت تسمى اليها الحاجة ، على اعتبار ان معظم الاطباء
الاميركيين المهتمين بالتحليل يجهلون اللغة الالمانية او لا يتقنونها

١١ - اميد في ١٩١٩ اصدار هاتين المجلتين من قبل المنشورات التحليلية
النفسية الدولية . وبدءا من المجلد ٦ الفيت كلمة «الطبي» من عنوان **المجلة
الدولية للتحليل النفسي** .

١٢ - مجلة علم النفس المرضي (الاسوي) . -م-

١٣ - المجلة التحليلية النفسية . -م-



يبقى علي الان ان اتكلم عن ارتدادين حدثا في صفوف المحللين النفسيين ، الاول بين تأسيس الرابطة (١٩١٠) ومؤتمر فايما (١٩١١) ، والثاني بعد هذا المؤتمر ، وان لم يأخذ صفة عامة الا في ميونيخ (١٩١٣) . ولقد كان من الممكن تجنب الخيبة التي سببها لي ، لو كنت اخذت بعين الاعتبار ، اكثر مما فعلت ، ما يحدث لدى الافراد الخاضعين للمعالجة التحليلية . فلقد آمنت من البداية بأن اول احتكاك مع الحقائق الشاقة التي يزيج التحليل النقاب عنها من شأنه ان يصد وينقّر ويشير رغبة في الهرب ؛ وما نيت اعلن ان درجة تفهم كل فرد ترتبط ارتباطا وثيقا بمكبواته (وبالمقاومات التي تبقي عليها مكبوتة) التي تمنعه من تخطي نقطة معلومة في التحليل . لكن ما لم اتصور قط امكانيته هو ان يعدل الفرد ، بعد ان يكون قد أوغل بتفهمه للتحليل الى عمق معين ، عن كل ما توصل اليه ، بله ان يفقده . ومع ذلك فان تجربة المرضى اليومية قد اظهرت لنا احتمال الخسران الكامل للمعرفة التحليلية، تحت تأثير مقاومة قوية بعض الشيء ، صادرة عن طبقة اعماق . وهكذا نلاحظ اننا بعد ان نكون ، من خلال عمل شاق ، قد جعلنا المريض يتفهم بعض المعطيات التحليلية المتفاوتة في اهميتها ، وبعد ان نكون قد أفلحنا في تعليمه كيف يتعامل واياها وكأنها من الاشياء المألوفة التي تخصه وحده ، نلاحظ في احدى المراحل انه

١٤ - في سنة ١٩٢٠ انشأ جونز «المجلة الدولية للتحليل النفسي»
(International Journal of Psycho - Analysis) وهي دورية

مخصصة لاميركا وانكلترا .

يفقد ، تحت تأثير مقاومة جديدة ، كل ما اكتسبه وتعلمه ، ويضع نفسه في حالة دفاعية كما في عز ايام تدريبه . وقد سنحت لي الفرصة لاتبين ان المحللين النفسيين يمكن ان يتصرفوا ، من وجهة النظر هذه ، تصرف المرضى الخاضعين للتحليل .

ان سرد تاريخ هذين الارتدادين ليس بالمهمة السهلة او المستهانة ، اذ لا تدفعني الى ذلك ، من جهة اولى ، دوافع شخصية قوية بما فيه الكفاية (فانا ما كنت انتظر عرفانا بالجميل ، كما انني لست بالحقود الذي يحفظ الضفينة) ، وانا أعلم حق العلم ، من الجهة الثانية ، انني أعرض نفسي ، بكتابتي لهذا التاريخ ، لتخرصات الخصوم ممن لا يتخرجون ، وأقدم للاعداء المشهد الذي طالما تمنوا رؤيته : مشهد «المحللين النفسيين وهم يفترسون بعضهم بعضا» . ولقد كنت آليت على نفسي (وهذه قاعدة حاولت جهدي ان اتقيد بها قدر الامكان) الا اناقش خصومي في غير مسائل التحليل ؛ وهانذا اجدني مضطرا الى خوض المعركة ضد خصوم قدامى او ضد اولئك الذين لا يزال بودهم الى اليوم ان يتظاهروا بأنهم من الانصار . لكن لا خيار لي : فلزومي الصمت سيعني وقوف موقف كسل او جبن وسيلحق بالقضية قدرا من الاذى اكبر من ذلك الذي قد يلحقه بها نكا الجراح وتعميرتها . وانا ، بكل تأكيد ، لن أضيف شيئا الى علم الاشخاص المطلعين اذا ما قلت لهم ان نظير هذه البلبلة وسوء التفاهم هذا يحدث ايضا في داخل حركات علمية اخرى . وكل ما هنالك ان الحركات الاخرى اقدر على اخفاء الامر ، بينما لا يسع التحليل النفسي ، الذي يرفض كل الاكاذيب المتواضع عليها ، الا ان يلزم جانب الصدق حتى في ظروف كهذه الظروف .

ثمة محذور آخر ، افدح خطورة ، يتمثل في انني لا استطيع ان أمسك نفسي عن اللجوء الى التحليل لتوضيح علة موقف المنشقين . والحال ان التحليل لا يصلح للاستخدام كسلاح في

المجادلة وحرب الكلام ؛ فهو يفترض ارتضاء الشخص المراد تحليله ، كما يفترض ، بين المحلل والمحلل ، علاقة رئيس بمرووس . ينجم عن ذلك ان من يتصدى للتحليل بهدف الجدل لا بد له ان يتوقع ارتداد سلاح التحليل الى نحره ، وان ينحو النقاش منحى يفدو من رابع المستحيالات معه على شخص ثالث غير متحيز تكوين اقتناع راسخ . اذن فسأقلص الى ادنى حد استعمال التحليل ، وسأحرص في الوقت نفسه على تحاشي افشاء الاسرار والموقف الهجومي ازاء خصومي ، وسأحذر قرائي - ناهيك عن ذلك - من انني لا اعتبر البتة النهج الذي ازمع اللجوء اليه نقدا علميا . فأنا لا أكثرث بأن أعرف الجوانب الصائبة التي يمكن ان تنطوي عليها النظريات التي اهاجم واضعها ، كما لا يدخل في نيتي ان انيري لها بالتنفيذ . بل اترك هذه المهمة لمحللين نفسيين اكفاء آخرين ، ولقد سبق لهم على كل حال ان أوفوا بشطر منها . وانما كل بفيتي ان أبين (وبصدد أي النقاط) ان هذه النظريات تمثل نفي التحليل النفسي ولا تملك الحق في الاختباء وراء هذا الاسم . ولئن لجأت الى التحليل ، فلأبين ما الكيفية التي يمكن ان تحدث بها هذه الانحرافات لدى المحللين .

على انني سأجد لازما علي ، فيما يتعلق بالنقاط التي حولها يدور الخلاف ، اللجوء الى ملاحظات نقدية للدفاع عن الحقوق المشروعة للتحليل النفسي . فلقد كان الهدف الاول للتحليل النفسي الوصول الى تفسير للاعصبة . وقد نجحنا ، بعد ان جعلنا نقطة انطلاقنا واقعتي المقاومة والتحويل ، واخذنا بعين الاعتبار واقعة ثالثة تتمثل بالنساية ، نجحنا في بناء نظرية الكبت، وفي بيان الدور الذي تلعبه الدوافع الفريزية الجنسية واللاشعور في الاعصبة . والتحليل النفسي لم يزعم في يوم من الايام انه يقدم نظرية كاملة عن الحياة النفسية للانسان بوجه عام، بل كان كل مطلبه ان تستخدم معطياته لتكملة وتصحيح المعطيات

التي تم احرازها بوسائل اخرى . والحال ان نظرية الفريد أدلر تتعدى هذا الهدف من بعيد ، اذ انها تطمح الى ان تقدم ، الى جانب تفسير اعصبة الانسان واذهنه ، تفسير سلوكه وطبعه . بل سأقول انها لا تمت بصلة الى نظرية الاعصبة ، وان تعمّدت ، بحكم اصولها ، ان تبوئها على الدوام مكانة الصدارة . لقد سنحت لي الفرصة ، على مدى سنوات عديدة ، لدراسة د. أدلر ، وما تأثرت في يوم من الايام ان اتعرف فيه انسانا موهوبا للغاية ، وان كان فكره ينزع بوجه خاص الى التأمل المجرد . وكيفا اعطي فكرة عن «الاضطهادات» المزعومة التي يدعي انه عانى منها من قبلي ، سأعيد الى الازهان انني عهدت اليه ، عقب تأسيس **الرابطة الدولية** ، بقيادة المجموعة الفينناوية . ولم اقرر ان اتولج من جديد رئاسة الجلسات العلمية الا نزولا عند إلحاف جميع اعضاء **الرابطة** . ولما تبين لي انه غير مؤهل كثيرا للتعاطي مع المواد التي يقدمها اللاشعور ولاستعمالها ، تأسيت عن ذلك بقولي ببني وبين نفسي انه حقيق على كل حال باكتشاف العلاقات القائمة بين التحليل النفسي من جهة ، وبين علم النفس والاسس البيولوجية للفرائز من الجهة الثانية ؛ وكان مثل هذا التوقع تبرره الى حد ما الدراسات الثمينة التي قام بها عن الدونية العضوية .

وبالفعل ، شرع بدراسة ما من هذا القبيل ، ولكنه فعل ذلك على نحو يوحي (استخدم هنا رطائنه بالذات) وكأنه يستهدف في المقام الاول ان يثبت ان التحليل النفسي جانب الصواب بصدد المسائل كافة ، وان تصديقه الساذج للقصص التي يرويها العصايون هو الذي جعله يعلق مثل تلك الاهمية على الدوافع الفريزية الجنسية . وبوسعي ايضا ان افشي سر الدوافع الشخصية لموقفه ، على اعتبار انه حرص بنفسه على اطلاع عدد من اعضاء الجماعة الفينناوية عليها : «أعتقد انه يطيب لي ان احيا طول حياتي خامل الذكر في ظلك ؟» . وأنا لا ارى ما يستوجب اللوم في موقف فتى يقر علنا وجهارا بطموحه الذي كانت كتاباته

قد نمت عنه . لكن مبلغا ما بلغ طموح المرء ، فلا بد له من ان يحاذر ان يغدو ما يسميه الانكليز **Unfair** (١٥) (وهي لفظة تصف موقفا يملك له الالمان نعتا اكثر غلظة بكثير) . ومن سوء الحظ ، لم يتمكن آدار من تحاشي هذا الموقف ، والدليل على ذلك تقدمه لنا الخبائث الصغيرة العديدة التي تربل بها كتاباته وادعاءاته المجاوزة الحد في الاسبقية . ألم نسمعه مباشرة ، في جلسات **رابطة فيينا للتحليل النفسي** ، يدعي لنفسه الاسبقية الى القول بتصور «وحدة الاعصبة» وبالتصور «الدينامي» لهذه الاخيرة ؟ ولقد كانت دهشتي عظيمة يومئذ ، اذ كان يخيل الي على الدوام انني انا الذي اكتشف هذين المبدأين ، في وقت ما كنت اعرف فيه آدлер بعد .

ان ظمأ آدлер هذا الى احتلال مكان له تحت الشمس ترتبت عليه بالاصل نتيجة لا يملك التحليل النفسي الا ان يغبط نفسه عليها . فيوم اوضحت خلافاتنا العلمية متفدرة التسوية ، دعوت آدлер الى التخلي عن منصبه كمحرر لمجلة **Zentralblatt** فاستقال كذلك من **الرابطة** واسس جمعية جديدة اطلق عليها في البداية اسما لا ينم عن ذوق رفيع هو : «جمعية التحليل النفسي الحر» . والحال ان الناس العاديين ، الغرباء عن التحليل النفسي ، يعجزون عن تمييز الفوارق القائمة بين اثنين من المحللين عجزنا ، نحن الاوروبيين ، عن تعرف الفروق الدقيقة التي تميز بين سحنتين صينيتين . وهكذا بقي التحليل النفسي «الحر» يقيم في ظل التحليل النفسي «الاورثوذكسي» ، «الرسمي» ، واعتبره الناس استقالة له . ولكن آدлер ما عثم ان خطأ خطوة اخرى الى الامام - ونحن له عليها من الشاكورين - فقطع آخر صلاته بالتحليل النفسي وميز مذهبه عنه بتسميته «علم النفس الفردي» .

والحق ان في كوكبنا متسعا لكل انسان ، ومن المباح لكل واحد ان يتحرك فيه بحرية اذا ما استشعر في نفسه القدرة على ذلك ؛ لكن من المستحيل الاستمرار في العيش تحت سقف واحد اذا ما انعدم التفاهم وصار الواحد لا يطيق وجود الآخر . «علم النفس الفردي» الأدلري يمثل اليوم واحدا من الاتجاهات السيكولوجية العديدة المعارضة للتحليل النفسي ، ولا يسناهل ان نخص تطوره بعناية ما .

لقد كانت نظرية أدلر من البداية عبارة عن «مذهب» ، وهذا ما سعى التحليل النفسي على الدوام الى تحاشيه . وهي تقدم لنا في الوقت نفسه مثالا ممتازا على «الصياغة الثانوية» التي يجربها الفكر الصاحي على المواد التي تقدمها الاحلام . وفي حالة أدلر تم استبدال مواد الاحلام بالمواد التي تقدمها الدراسات التحليلية النفسية ، منظورا اليها في المقام الاول من وجهة نظر الانا ، ومختزلة الى المقولات الملزمة للانا ، ومترجمة ومستخدمه وفقا لهذه المقولات ، وتاما كما في تكوين الحلم ، منسأ فهمها . وعليه ، فان نظرية أدلر ذاتها تتميز بما تنفيه اكثر منها بما تثبته، وهي تتألف من عناصر ثلاثة ، متفاوتة القيمة : من مساهمات جيدة في علم نفس الانا ، ومن ترجمات لا لزوم لها ، لكن مقبولة عند الافتضاء ، للوقائع التحليلية الى رطانة جديدة ، ومن تشويهات وتأويلات عسفية لهذه الوقائع كلما انعدم التوافق بينها وبين مقدمات الانا . اما عن عناصر اولى هذه المقولات ، فان التحليل النفسي لم يخطر له ببال قط ان يتجاهلها ، وان لم يترأ له انه ملزم بأن يعيرها انتباها خاصا : بل كان يهمل قبل ذلك ان يبين ان ثمة عناصر لبييدوية تلازم جميع صبوات الانا . اما نظرية أدلر فتلج ، على العكس ، على العناصر الانانية الملزمة للدوافع الليبيدوية ، وهي وجهة نظر كان يمكن ان تكون خصبة لولا ان أدلر يستخدمها في كل لحظة وأن لينكر الدافع الليبيدوي لصالح

عناصر الانا الحافزة . وهو يسلك ، بعمله هذا ، مسلك مرضانا جميعا ، ومسلك فكرنا الواعي بوجه عام ، اي باللجوء الى ما يسميه جونز بالتفصيل ، بغية اخفاء الحافز اللاشعوري . ومن هذه الزاوية ، فان آدلر منطقي مع نفسه الى حد التصريح بأن نية الوقوف امام المرأة موقف السيد ، مجيئها من اعلى ، تشكل النابض الرئيسي للفعل الجنسي . واني لاجهل ان كان جرؤ على التعبير عن هذه الفواحي في كتبه .

لقد اعترف التحليل النفسي مبكرا بأن كل عرض عصابي لا يظهر الى حيز الوجود الا نتيجة لتسوية . ومن ثم لا بد له من ان يلبي بصورة من الصور مطالب الانا الواقع تحت ضغط ميوله المكبوتة ، وان يكون ذا فائدة ما ، وان يتيح امكانية استخدام ناجع له ، وإلا لكان مصيره مصير الدافع الفريزي البدائي المكبوت . وعبارة «المرض المريح» تعبر كافي التعبير عن هذا الوضع ؛ ومباح لنا ، فضلا عن ذلك ، ان نجري تمييزا بين ربح اولي ينتفع به المريض ساعة ظهور العرض ، وربح «ثانوي» يتأتى من ان العرض مرغم ، اذا كان يريد توكيد ذاته ، على التراكب مع مقاصد اخرى للانا ، وعلى الاعتماد عليها .

اما ان تناقص هذا الربح او زواله ، عقب تغير فعلي ، يشكل احدى الاواليات التي يشفى بها المريض من عرضه ، فهذه ايضا واقعة معلومة لدى التحليل النفسي منذ زمن بعيد . والحال ان نظرية آدلر تشدد تشديدا خاصا على هذه التفاصيل ، السهل تبينها ومعاينتها ، من دون ان تنتبه البتة الى ان الانا يجعل ، في العديد من الحالات ، من الضرورة فضيلة ، فيستطيب العرض الذي فرض نفسه عليه - وان يكن في الاصل مستكرها - لما يستتبعه من نفع وفائدة ، تماما كما يفعل عندما يقبل بالحصر كوسيلة امان . ويلعب الانا في هذه الحالات عين الدور الذي يلعبه مهرج السيرك الذي يسعى ، بحركاته ، الى اقناع الحضور

بان جميع التفيرات التي تحدث على الحلبة هي من فعل ارادته واوامره . الا انه لا يقلح في ان يقنع احدا من الحضور سوى الاطفال .

اما العنصر الثاني من العناصر المكونة للنظرية الادلرية ، فلا يسع التحليل النفسي الا تبنيه بوصفه شطرا منه . وبالفعل ، لا يعدو الامر ان يكون معطيات تحليلية نفسية استقاها المؤلف ، خلال السنوات العشر من العمل المشترك ، من المصادر المتاحة للجميع ، ويبقى مع ذلك ان يصورها وكأنها من اكتشافه الشخصي ، متوسلا الى ذلك محض تغيير في المصطلحات . وانا على اتم استعداد للاقرار بان كلمة «ضمانة» افضل من عبارة «وسيلة امان» التي كنت استخدمها شخصيا ، لكني لا اجد ان هذا الاستبدال للفظه باخرى يترتب عليه تغير في المدلول . بل اننا سنهتدي ، في توكيدات آدلر ، الى طائفة من الاشياء المعروفة منذ زمن بعيد فيما لو وضعنا محل كلمتي « وهم » و « وهمي » ، والفعل المبني من الجذر نفسه ، كلمات اقدم عهدا في استعمالها ، وذات صلة بمفهوم « التخييل » («الخيال») . ومن حق التحليل النفسي ان يلح على هذا التماثل ، حتى ولو كنا لا نعلم ان المؤلف استقى من معين مواده وساهم في العمل المشترك على مدى سنوات عديدة .

ان النظرية الادلرية ، من حيث هي «علم نفس فردي» ، لا تنفصل بصورة نهائية عن التحليل النفسي الا بجزئها الثالث ، اي بالتأويلات الجديدة والتعريفات للوقائع التحليلية المخرجة . فالفكرة التي يقوم عليها مذهب آدلر هي ان ميل الفرد الى توكيد ذاته و«نزوعه الى التسلط» هما اللذان يترجمان في شكل «احتجاج رجولي» آسر في المسلك الحياتي وفي الطبع وفي المصائب . والحال ان هذا الاحتجاج ، الذي يعزو اليه آدلر دور المحرك الرئيسي ، ما هو في واقع الامر سوى الميول المكبوتة التي

يفصلها أدلر عن أواليتها السيكولوجية ، عن طريق تجنيسها ، وهذا بالضبط ما يتنافى ودعواه بأنه جرد الجنسية من الدور الذي يلقدها إياه التحليل النفسي في الحياة النفسية . ان الاحتجاج الرجولي له وجوده بكل تأكيد ، لكن حتى يجعل المرء منه محرك الصيرورة النفسية ، فلا بد له ان يعتبر الملاحظة العلمية مجرد مقفز للوثوب الى اعلى . لناخذ ، على سبيل المثال، احد التعديلات الرئيسية التي تطرا على الرغبة الطفلية ، نقصد التعديل الذي ينجم عن مراقبة الطفل للعلاقات الجنسية بين الراشدين . فتحليل الاشخاص الذين اضطروا لاحقا الى طلب المعالجة الطبية يكشف النقاب عن ان رغبتين اثنتين استبدا بالمراقب الغض العود ساعتئذ : الرغبة (اذا كان صبيا) في ان يكون محل الرجل الذي يلعب الدور الفعال ، والرغبة المضادة في التماهي مع المرأة التي لا خيار لها الا في دور منفعل . ان هاتين الرغبتين تستنفدان امكانيات اللذة المرتبطة بالموقف . ووحدها الرغبة الاولى قابلة للربط بالموقف الرجولي ، وهذا على افتراض ان هذا التصور له ، بوجه عام ، معنى ما . اما الرغبة الثانية ، التي لا يكثرث أدلر بمصيرها او يتجاهله ، فهي المدعوة مع ذلك الى ان تلعب دورا أهم بكثير في العصاب المرشح للظهور مستقبلا . ان أدلر يسجن الانا في انانية شرسة ويقضي عليه بعزلة مستوحشة ، بحيث يخيل اليه انه غير ملزم بأن يأخذ بعين الاعتبار سوى الدوافع الفريزية التي تناسبه والتي عليها يوافق؛ ومن ثم فان العصاب ، الذي تعارض فيه الحفزات الانا ، يتجاوز افق مؤلفنا .

غير ان أدلر لا يعتمد أخطر الابتعاد عن الواقع الذي تشف عنه الملاحظة العلمية ولا يقع في اسوا ضروب التخليط الذهني كما يحدث له عندما يحاول ، طبقا لاحدى قواعد التحليل النفسي الاساسية ، ان يربط مبدا نظريته بالذات بحياة الطفل النفسية .

فهو يخلط هنا على نحو بالغ التعقيد ولا مسوغ له على الإطلاق بين المعنى البيولوجي والمعنى الاجتماعي والمعنى السيكلولوجي لكلمتي «المذكر» و«المؤنث» . وانه لمن المتعذر التسليم (والملاحظة تعارض ذلك عند الاقتضاء) بأن الطفل ، أذكرا كان أم أنثى ، يقيم كل تصوره عن الحياة على أساس الخفض من قيمة المرأة ويتخذ من الرغبة التالية خطأ هاديا له : «أريد ان أصبح رجلا بملء معنى الكلمة» . ففي البداية ، لا يكون لدى الطفل اي فكرة عن الفوارق الجنسية ؛ بل يكون راسخ الاقتناع بالاحرى بأن كلا الجنسين يملكان عضوا تناسليا واحدا (مذكرا) ؛ ولا تطل تأملاته الجنسية الاولى بصورة من الصور الفروق الجنسية ، وتكون فكرة دونية المرأة الاجتماعية غريبة عنه كل الغربة . وعديدات هن النساء اللواتي لا تلعب الرغبة في ان يكن من الرجال اي دور في عصابهن . اما الاحتجاج الرجولي فهو قابل لان يُرد بسهولة الى الاضطرابات الطارئة على النرجسية البدائية بفعل تهديد الخصاء ، وبعبارة اخرى ، بفعل العقبات الاولى التي تمترض النشاط الجنسي . وسوف تنتهي جميع المناقشات بصدد اسباب نشوء الاعصبة يوم يتقرر نقلها الى صعيد الاعصبة الطفلية . وحسبنا ان نقوم بتحليل دقيق ومفصل لعصاب من الطفولة الاولى حتى تتبدد على مرأى منا جميع الاخطاء المتعلقة بأسباب نشوء الاعصبة وجميع الشكوك المحومة حول دور الدوافع الفريزية الجنسية . لذا وجد أدلر نفسه مضطرا ، في عرضه النقدي لكتاب يونغ *Konflikte Der Kindlichen Seele* (١٦) ، الى الإشارة الى ان المواد المتعلقة بهذه الحالة «قد امكن لها ان تتلقى من الاب» طابعها الشامل (١٧) .

١٦ - الصراعات في نفسية الطفل . -م-

١٧ - المجلة المركزية للتحليل النفسي ، ١٢ ، ص ١٢٢ . -م-

لن الح اكثر من ذلك على الجانب البيولوجي من نظرية آدلر، ولن اسعى الى ان اتحرى هنا ما اذا كان اساس المذهب الادلري يقوم على الدونية العضوية الموضوعية او على الشعور الذاتي بهذه الدونية (يتعذر ابداء رأي قاطع بصدد هذه المسألة) . لنقل فقط ان العصاب ، في تصور آدلر ، لا يظهر الا كمعلول ثانوي لانحطاط عام ، بينما تعلمنا الملاحظة انه يوجد عدد لا يقع تحت حصر من اناس قبيحين ، شائنين ، مسيخي الخلقة ، هم في ادنى الحضيض من البؤس الفيزيولوجي ، لكنهم لا يخطر لهم ببال مع ذلك ان يردوا على عيوبهم ودونيتهم بأعصبة . وانا اترك جانبا ايضا الحيلة المثيرة للاهتمام التي تعتمد الخلط بين الشعور بالدونية والشعور بالطفالة *Infantilisme* . وتظهر لنا هذه الحيلة ما طبيعة التناسخ الذي يمر به عامل «الطفالة» ، الذي يلعب دورا بالغ الاهمية في التحليل النفسي ، ليعاود ظهوره في علم النفس الفردي . لكنني احرص بالمقابل على بيان ان جميع المكتسبات السيكولوجية للتحليل النفسي تتبخر وتلاشى لدى آدلر . ففي كتابه **المزاج العصبي** يبدو الاشعور وكأنه طرفة من طرائف علم النفس ، ومبتوت الصلة بمجمل المذهب . وقد صرح فيما بعد ، انسجاما مع منطقته ، بأنه لا يهتم كثيرا ان كان هذا التمثل او ذاك شعوريا او لاشعوريا . اما فيما يتعلق بالكبت ، فلم يفقه فيه شيئا على الاطلاق قط . نقرأ في تلخيص لكلمة القاها في جمعية فيينا (شباط ١٩١١) : «يبين المؤلف ان المريض ، في احسدى الحالات ، لم يكتب طاقته الليبيدية التي كان يسعى باستمرار الى اتقانها ، كما لم ... الخ» (١٨) . وبعيد ذلك حاجج على النحو

١٨ - مجلة التراسل *Korrespondenzblatt* العدد ٥ ، زورينخ ، نيسان ١٩١١ .

التالي في مناقشة دارت في فيينا : «لو سألتم من اين يأتي الكبت ، لجاءكم الجواب بأنه معلول للحضارة ؛ ولو سألتم من اين تأتي الحضارة ، لجاءكم الجواب بأنها نتاج للكبت . وكما ترون ، هذه شعبة لفظية لا تضاهي» . ولو ان أدلر استخدم جزءا فقط من الارابة التي راح يدافع بها عن «مزاجه العصبي» ، لوجد بكل تأكيد السبيل الى الخروج من ذلك الاحراج ، ولكن ادرك ان الحضارة ، من جهة اولى ، ترتكز الى كبوتات الاجيال السالفة ، وانه تقع ، من الجهة الثانية ، على عاتق كل جيل جديد مهمة صون هذه الحضارة والحفاظ عليها بفرضه على نفسه الكبوتات ذاتها . وانا اعرف حالة طفل كان يعتبر نفسه مخدوعا ويرفع عقيرته بالزعيق لانه اذا ما سأل : «من اين يأتي البيض ؟» جاءه الجواب : «من الدجاجات» ، واذا ما سأل من اين تأتي الدجاجات جاءه الجواب : «من البيض» . ومع ذلك ، لم يكن في الامر شيء من الشعبة اللفظية ، بل كان ما قيل للطفل هو الحقيقة بعينها . ان كل ما كتبه أدلر عن الحلم ، مفتاح التحليل النفسي ، يبقى هو ايضا بائسا وخاويا . فقد رأى في الحلم ، في بادئ الامر ، استبدالاً للخط المؤنث بالخط المذكر ، مما لا يعني في واقع الامر سوى ترجمة ، بتماير «الاحتجاج الرجولي» ، للنظرية التي عرفت الحلم بأنه يمثل تحقيقاً لرغبات . وفي وقت لاحق وجد ان ما يؤلف جوهر الحلم هو حصول الانسان لاشعوريا في الحلم على ما هو مضمون عليه به في الحالة الشعورية . والى أدلر ايضا تعود الاسبقية في الخلط بين الحلم وافكار الحلم ، وهو الخلط الذي تقوم عليه نظريته في «النزوع المستقبلي» . ولقد سار ميدر Maeder من بعده في الطريق نفسه . ومن يخلط مثل هذا الخلط يفض عينيه عن عمد عن واقع ان كل تأويل لحلم من الاحلام (والحلم لا يكون قابلا للفهم بصورة من الصور اذا

لم يؤخذ بعين الاعتبار سوى مضمونه الظاهر) يستند الى عين القواعد والمبادئ التي يماري في قيمتها ونتائجها . اما فيما يتعلق بالمقاومة ، فلا يجد أدلر ما يقوله سوى انها تفيد المريض في معارضة الطبيب . وهذا صحيح ، لكنه من باب قولك : المقاومة تفيد في تأمين المقاومة . لكن من اين تأتي المقاومة وكيف نفسر ان تظاهراتها تأتي على الدوام في محلها وفي الوقت المناسب لتخدم مقاصد المريض ؟ ان المؤلف يدع هذه الاسئلة جانبا ، وكأنها عديمة الاهمية بالنسبة الى الانا . كذلك فانه لا يبدي اهتماما اكبر بالاواليات التفصيلية للظواهرات والاعراض ، وبالعلل التي تكمن وراء تنوع المرض والتظاهرات المرضية : فهذه الاواليات وهذه العلل لا تستأهل من اهتمام في نظره الا بقدر ما تفيد ، كائنة ما كانت طبيعتها ، في توليد الاحتجاج الرجولي وتوكيد الذات وتسامي الشخصية . والحق ان المذهب مكتمل ناجز في اجزائه جميعا ، وقد استأدى واضعه مجهودا ضخما لاعادة تأويل المعطيات والملاحظات القديمة، لكنه لا يتضمن اي ملاحظة جديدة. واعتقد انني اوضحت بما فيه الكفاية انه لا يمت بصلة الى التحليل النفسي .

ان فكرة الحياة ، كما تتجلى في مذهب أدلر ، تركز بكليتها الى الاعتراف بالدور الراجع ، بله الحصري ، لفرائز العدوان . ولا تفرد اي مكان للحب . وقد تأخذنا الدهشة اذا ما وجدنا تصورا للعالم مشبّطا كهذا للعزائم يحظى باستقبال جيد ؛ لكن لا يجوز ان ننسى ان البشرية ، الراضحة تحت نير حاجاتها الجنسية، مستعدة للقبول بأي شيء كان ، بشرط ان يلوح لها باحتمال «هزيمة الجنسية» .

لقد حدث ارتداد أدلر قبل مؤتمر فايمار ، في سنة ١٩١١ . وبعد هذا التاريخ حدث الارتداد السويسري . ولقد كانت مؤشرات الاولى - وهذه واقعة تبعث على الاستغراب - بعض تلميحات

ضمنها ركن مقالات تبسيطية له نشرت في سويسرا ، وبفضل هذه التلميحات امكن لغير اهل الاختصاص ان يعلموا ، قبل الاختصاصيين ، ان التحليل النفسي افلح في التخلص من بعض الاخطاء المؤسفة التي ما كانت الا لتسيء الى حظوته . وفي رسالة وجهها الي يونغ من اميركا ، سنة ١٩١٢ ، تباهى يونغ بأنه تغلب، بما ادخله من تعديلات على التحليل النفسي ، على المقاومة التي كان هذا الاخير يلقاها من جانب عدد من الاشخاص الذين كانوا يأبون الى ذلك اليوم ان يعيروه اي اذن صاغية . وقد اجبته بأنني لا ارى في ذلك ما يدعو الى الفخر ، وأنه كلما ضحى بالمزيد من الحقائق التي ما احرزها التحليل النفسي الا بتسحق الانفس ، زاد من مقبوليته لدى الجمهور الواسع . والحال ان التعديل الذي تباهى السويسريون به اعظم التباهي كان يتمثل تحديدا في الانتقاص النظري من قيمة العامل الجنسي واهميته . وانني لأقر واعترف بأنني رايت من البداية في «هذا التقدم» تنازلا مسرفا وخطرا امام مطالب الساعة الراهنة .

ان الحركتين الارتداديتين ، المنشقتين عن التحليل النفسي، واللتين يتوجب علي الان ان اقابل بينهما ، يتشابهان ايضا من حيث سميتهما الى اكتساب عطف الجمهور بذرعهما باعتبارات من مستوى اعلى وبتظاهرها بالنظر الى الامور من وجهة نظر **نظري** **الابدية** (١٩) . فأدلل يعلن نسبية كل معرفة وحق الشخصية في ان تصوغ فنيا المواد التي يزودها بها العلم . ويلج يونغ على الحق التاريخي للشباب في خلع القيود التي يزعم ان الشيخوخة الطاغية ، المتحجرة في تصوراتها المنصلبة ، تريد ان تغله بها . والحق ان هذه الحجج تستدعي بعض الملاحظات الاعتراضية .

فنسبية المعرفة مطلب يمكن ان يقابل به اي علم كان ، مثله في ذلك مثل التحليل النفسي . وهو من نتاج بعض التيارات الرجعية في عصرنا ، المعادية للعلم ، واولئك الذين يشهرونه انما يريدون التظاهر بسيماء من التفوق لا تناسبنا نحن . وما من احد منا يملك ان يتكهن بالحكم النهائي الذي ستصدره البشرية على جهودنا النظرية . ونحن نعرف امثلة وقفت فيها ثلاثة اجيال متعاقبة موقفا سلبيا ازاء بعض الحقائق ، فاذا بالجيل الرابع يتنصل من هذا الموقف السليبي بعد طائاته الراس امام هذه الحقائق عينها . وعليه ، لا يبقى امام كل واحد ، بعد ان يكون قد اعار انتباهه كله ان لصوته النقدي الذاتي وان لصوت خصومه ؛ الا ان يدافع بكل ما اوتي من قوة عن قناعاته المبنية على التجربة . وحسبنا ان نكون على وئام مع ضميرنا ، وما علينا ان نقوم بدور القاضي الذي يخص الغد البعيد . وليس هناك اخطر من الرغبة فسي إقحام العسف الشخصي على أمور العلم . وانما صدوعا لامر هذا العسف يريد بعضهم ان يماري في القيمة العلمية للتحليل النفسي ، هذه القيمة التي تردها اصلا تأملاتنا السالفة الــــى حجمها الحقيقي . ومن يقدر الفكر العلمي ويجله يجدر بســـه بالاحرى ان يبحث عن الوسائل والطرائق القيمة بأن تقلص الى اقصى حد مستطاع تأثير العسف الفني والشخصي ، وذلك حيثما ما يزال هذا العامل يلعب بعد دورا اكبر مما ينبغي . ثم اننا لا ننكر انها مضيعة للوقت ان يبدد المرء طاقته في جهود دفاعية . فآدار نفسه لا يحمل حججه على محمل الجد ؛ بل غرضه منها ان يؤثر في الخصم ، مع احترامه في الوقت نفسه لنظرياته الخاصة . كما انها لم تمنع انصار آدار من الاحتفاء به وكأنه المهدي المنتظر الذي طالما بشر رعال من الرواد الانسانية بقدومه . والحال ان ما من شيء اكثر نسبية من فكرة كهذه .

اما حجة يونغ فترتكز ، اذا ما حملناها على محمل حسن (٢٠) ، الى مقدمة متفائلة تفترض ان تقدم البشرية والحضارة والعلم قد سلك على الدوام خطا مستقيما متصلا . فكانه ما وجد قط ورثة صفار ، وكانه ما قامت قط ثورات أعقبتها ردات ، وكان التاريخ ما عرف قط اجيالا نكصت ، مدفوعة بحركة ارندادية ، عن منجزات الاجيال السابقة . ويونغ ، بنقربه من وجهة نظر الجمهور ، وينكوصه عن بعض المستحدثات التي لم يرحب بها هذا الجمهور ، إما لانها غير محببة الى النفس واما لانها لا تدهن مشاعره ، وبتصحيحه التحليل النفسي بالاتجاه الذي نعرف ، يونغ هذا يولد لدينا الانطباع بأنه اراد ان يفعل شيئا آخر غير تلك البادرة الفتوية والتحريرية . وعلى كل ، واذا شئنا ان نعلم ما اذا كانت هذه البادرة او تلك فتوية ، فلا بد ان ننظر لا الى عدد سني القائم بها ، بل الى صفة الفعل بالذات .

وبين الحركتين اللتين تستأثران باهتمامنا هنا ، فان الحركة التي يقف وراءها آدلر هي بدون ادنى ريب ابلغهما مدلولاً ؛ وان تكن خاطئة كل الخطأ فانها تتميز بالمقابل ببنيتها المنطقية وبتلاحمها . وهي تظل ترتكز الى نظرية في الفرائز . اما التعديل الذي ادخله يونغ فقد فسم ، على العكس ، الوشائج القائمة بين الظاهرات والحياة النفسية ؛ وهذا التعديل ، علاوة على ذلك ، شديد الابهام والغموض والتشويش ، كما أوضح نقاده (ابراهيم ، فيرنزي ، جونز) ، بحيث لا يسهل تحديد الموقف الذي ينبغي وقوفه منه . ومن اي صوب اتيته ، فلا بد لك ان تتوقع ان يقال لك انك اسأت فهمه ، وان تدري ابدا ما ينبغي عليك فعله وكيف يجب ان تصرف لتفهمه على وجه صحيح ومطابق . بل ان هذا

التعديل يتلبس هو نفسه مظاهر شتى ومتنوعة ، فتارة يتبدى وكأنه «خلاف بسيط للغاية لا يستأهل كل الضجة المثارة حوله» (يونغ) ، وطورا كأنه انجيل جديد ، يدشن عصرا جديدا فـي التحليل النفسي ، بله تصورا للعالم جديدا بالنسبة الى سائر البشرية .

ازاء التناقضات التي نعاينها بين مداخلات شتى ، عامة وخاصة ، ليونغ ، من حقنا ان نتساءل عن مدى الدور الذي يلعبه في هذا كله التخليط السائد في ذهنه بالذات كما في ذهن من يسير في ركابه ، وكذلك عن مدى الدور العائد الى نقص الامانة العلمية . على انه لا خيار لنا الا في ان نسلم بأن أنصار المذهب الجديد يواجهون موقفا صعبا . فهم يحاربون اليوم ما كانوا دافعوا عنه بالامس ، وهم يحاربونه ، لا لأن ملاحظات جديدة كشفت لهم عن وقائع جديدة ، وانما بفعل تاويلات جديدة اظهرت لهم الامور في مظهر مغاير لذاك الذي كانت قد تبدت لهم فيه آنفا . ولهذا لا يحرصون على قطع صلاتهم بالتحليل النفسي الذي كانوا من ممثليه الدائمين ، بمعرفة من الجميع ، بل يفضلون ان يعلنوا انهم عدلوا التحليل النفسي . وقد وجدني مضطرا ، في اثناء مؤتمر ميونيخ ، الى المبادرة الى تبديد سوء التفاهم هذا ، فصرحت أنني لا أعتبر البتة التجديدات التي ادخلها السويسريون تنمة منطقية للتحليل النفسي الذي انا واضعه . وكان نقاد غرباء عن التحليل النفسي (فورتمولر على سبيل المثال) قد ادركوا حقيقة هذا الموقف ، كما اصاب ابراهام اذ قال ان يونغ على وشك الانسحاب الكامل من التحليل النفسي . وانا على اتم استعداد بطبيعة الحال للاعتراف لكل انسان بحقه في ان يقول ويكتب ما يشاء ، لكنني لا اعترف له بالحق في ان يصور أفكاره بغير ما هي عليه حقيقة .

وكما ان أدلر طالب ، مقابل الجديد الذي ادخله ، بأبحائه ،

على التحليل النفسي - عناصر لعلم نفس فردي - بالحق في نبد جميع النظريات الاساسية للتحليل النفسي ، كذلك اتخذ يونغ وانصاره من الاضافة الجديدة التي يزعمون انهم زودوا بها التحليل النفسي نقطة انطلاق لهم لكفاحهم ضده . فقد تتبعوا نقطة نقطة (وهذا ما كان بفستر فعله قبلهم) التطور الذي يفضلته يتم استخدام مواد التمثلات الجنسية ، ذات الصلة بالعقدة العائلية وبالميل الى حب المحارم ، لتكون بمثابة تعبير عن أسمى اهتمامات الانسان الاخلاقية والدينية : تصعيد الميل الايروسية وتحويلها الى ميل لا تعود تنطبق عليها صفة الايروسية . ولقد كان ذلك يتفق اتم الاتفاق مع مقدمات التحليل النفسي ، كما كان من الممكن ان يتفق مع التصور القائل بأن العصاب هو بمثابة انحلال نكوصي لهذا التصعيد ولتصعيدات اخرى كثيرة . لكن الناس كان سيتعالى هتافهم في هذه الحال احتجاجا وكانوا سيستنكرون هذا التخييس للاخلاق والدين ! ولست بمستطيع هنا ان امسك نفسي عن الاستسلام ، ولو لمرة واحدة ، للتصور «الفائي» ، لاسلم بأن مكتشفي الاكتشاف الذي تحدثت عنه ما كانوا اهلا لمواجهة انفجار تلك الشحنة من الاستنكار . بل من الممكن ان يكون الاستنكار قد بدأ يمتلئ في نفوسهم بصمت . والسوابق اللاهوتية للعديد من السويسريين لم تلعب ، في موقفهم من التحليل النفسي ، دورا اقل شأنًا من الدور الذي لعبته السوابق الاشتراكية لآدلر في تطور علمه النفسي الفردي . وان المرء ليذهب به الفكر ، غصبا عنه ، الى القصة المشهورة التي يتحدث فيها مارك توين عن مصائر ساعته والى ما تفصح عنه هذه القصة في ختامها من اندهاش : «وقد دأب على التساؤل عما حل بكل المفكرين الخائبيين وصانعي البنادق والاسكافيين والحدادين ، لكن ما كان باستطاعة احد ان يجيبه على ذلك» (٢١) .

سألجأ هنا الى تشبيهه . لنفترض اننا امام محدث نعمة يتباهى بأنه سليل أسرة عريقة في نبلها ، لكنها غريبة عن المجتمع الذي بين ظهرانيه يحيا هو نفسه . ولنفترض اننا اثبتنا له ان اهله يسكنون في الجوار ، وانهم اناس من اصل متواضع للغاية . عندئذ لا يبقى امامه سوى سبيل واحد ، لا يعتم ان يلجأ اليه بلا تردد . فهو لا يستطيع ان ينكر اهله هذه المرة ، لكنه يزعم انهم من النبلاء الساقطين ، ويستحصل من موظف مرتشٍ على وثائق تشهد على نبلهم . وفي رأيي ، ان السويسريين لم يسلكوا غير هذا المسلك . فالاخلاق والدين لا يجوز تجنيسهما ، على اعتبار ان كلا منهما ذو اصل «أعلى» . على رسلهم . لكن من المستحيل ، من جهة ثانية ، نفي واقع ان التمثلات ذات الصلة بالاخلاق والدين تنجم عن العقدة العائلية وعن عقدة حب المحارم . فكيف السبيل الى التوفيق بين المطلب المتقدم ذكره وبين هذه الواقعة ؟ بطريقة بسيطة غاية البساطة : بالزعم بأن العقدين المشار اليهما لا تعنيان من البداية ما يمكن ان نتصور انهما تعنيانه عندما نؤولهما حرفياً، بل تشتملان على معنى **باطني** (بحسب اصطلاح سيلبرر Silberer) يتيح لهما امكانية التكيف مع الافكار المجردة للاخلاق والروحانية الدينية .

اتوقع ان يعترض علي معترض بانني اسأت فهم معنى النظرية الزوربخية الجديدة وقصدها ، لكن علي ان آخذ احتياطاتي مقدماً، حتى لا يخطر ببال احد ان يعزو الي الاستنتاجات (المتناقضة مع رؤيتي للاشياء) التي ترشح بها منشورات هذه المدرسة . وانا لا استطيع ان اتمثل على غير هذا النحو مجمل تجديدات يونغ ، كما أعجز عن تكوين فكرة متلاحمة عنها . فالتعديلات التي ادخلها يونغ على التحليل النفسي انما املتها عليه جميعها الرغبة في استبعاد كل ما من شأنه ان يجرح الاحاسيس في العقد العائلية، حتى لا تعاود هذه العناصر الجارحة ظهورها في الدين والاخلاق . وهكذا استبدل الليبيدو الجنسي بفكرة مجردة ، كل ما يمكن ان

يقال عنها هو انها تبقى غامضة وعصية على الفهم ان بالنسبة الى الحكماء ام الى بسطاء النفوس . ففعدة اوديب تلت مدلسولا «رمزيا» ، اذ صارت الام ترمز الى ما هو غير قابل للتحقيق ، الذي تقضي مصلحة الحضارة بالعزوف عنه ، بينما يفدو الاب ، الذي يسقط في اسطورة اوديب ضحية جريمة ، ممثلا للاب «الداخلي» الذي لا بد للانسان ان يتحرر منه حتى يفوز بالاستقلال والحرية . ولا ريب في ان مواد اخرى من التمثلات الجنسية ستخضع مع مر الزمن لاعادات تاويل مماثلة . وبدلا من النزاع بين الميسول الايروسية المعارضة للأنا وميل الانا الى تأكيد ذاته ، نشهد بروز ظهور نزاع بين «المهمة الحيوية» و«المطالة النفسية» ؛ وفي هذه الحال لا يعود الشعور بالذنب الملاحظ لدى المصابين الإبمثابة تانيب ضميري لاشعوري يوجهه الفرد الى ذاته لعدم وفائه بالمهمة الحيوية . هكذا يكون قد تم تشييد مذهب اخلاقي - ديني جديد لم يجد امامه بدا ، مثله مثل المذهب الأدلري ، كما يوفر لنفسه اسباب التلاحم والصلابة ، من ان يؤول الى معنى جديد المعطيات العينية للتحليل او ان يشوهها ويحرّفها او ان ينحيها جانبا . وفي الواقع ، لم يقع تحت الادراك من كل سنغونية الصيرورة الكونية سوى الجزء الذي تفنّيه الحضارة ، بينما بقيت الأذان صما دون لحن الفرائز ، رغم قوته البدائية .

وحتى يقيض لهذا المذهب ان يتماسك ، لم يكن هناك مناص من الاشاحة نهائيا عن الملاحظة وعن تقنية التحليل النفسي . وبالنسبة ، وباسم القضية الكبرى ، استبيحت الاستهانة بالمنطق العلمي ، فاذا بيونغ ، الذي لم يجد عقدة اوديب ، على سبيل المثال ، «نوعية» بما فيه الكفاية بالنسبة الى انيواوجيا الاعصبة ، اذا به يعزو هذه النوعية الى العطالة ، اي الصفة الاعم للاجسام الحية او الهامدة على حد سواء . ويجدر بنا ان نلاحظ ، بهذا الخصوص ، ان «عقدة اوديب» لا تعود تمثل ، في رأي هذه المدرسة ، سوى معيار يسمح للفرد بتكوين فكرة عن قواه ، ولكن

من دون ان تشكل هي نفسها قوة، شأنها شأن «العطالة النفسية». وقد دل السبر الفردي وسيدل دوما على ان العقد الجنسية ، بالمعنى الاصلي للكلمة ، تبقى على الدوام حية وفاعلة في الفرد. ولكن اية اهمية لذلك ! فليس اسهل من العزوف عن السبر الفردي ومن السعي الى صياغة استنتاجات بحسب المعطيات التي يوفرها السبر الاتنولوجي . وما دامت العودة الى طفولة الانسان الاولى تنذر بأن تضعنا وجها لوجه امام المدلول الحقيقي ، غير المقنع ، للعقد التي نسعى الى اعادة تأويلها ، لذا فستنبى المدرسة الجديدة كقاعدة علاجية عدم التوقف بقدر الامكان عند هذا الماضي ، والتعجيل بالرجوع الى النزاع الراهن الذي يخفي فيه ، حمدا لله ، كل ما هو عرضي وشخصي ، ليحل محله العنصر العام ، الاساسي : عدم انجاز المهمة الحيوية .

ولئن يكن هناك رأي يقول ان النزاع الراهن الذي يشكو منه العصابي لا يفدو قابلا للفهم والحل الا متى ما ربط بالتاريخ السابق للمريض ، على ان تسلك هنا طريق معاكسة لتلك التي سلكها الليبيدو ليفضي الى المرض، فان المذهب العلاجي الزوريخي الجديد ، الواقع تحت هيمنة هذه الميول ، بادر الى سلوك وجهة جديدة يسعني وصفها بناء على معطيات مريض امتحن فسي شخصه بالذات مفاعيل هذه المعالجة . قال هذا المريض : «هذه المرة لم يتم اي اعتبار للماضي والتحويل . وفي كل مرة كان يخيل الي فيها انني اكاد افهم هذا الاخير ، كان يقول لي انه محض رمز لليبيدو . ولقد كانت النصائح جميلة للغاية ، وكنت اتقيد بها بدقة ، لكن من دون ان اتقدم مع ذلك خطوة واحدة الى الامام. وكان الامر اشد ازعاجا لي منه له ، ولكن ماذا كان بوسعي ان افعل ؟... كانت كل ساعة ، بدل ان تأتيني بتحرر تحليلي ، تفرض علي مطالب عجيبة جديدة ، ولم يكن امامي مفر ، على ما يقال لي ، من الرضوخ لها اذا كنت ابغي التغلب على العصاب :

تركيز داخلي عن طريق الانطواء ، تأمل ديني ، استئناف الحياة المشتركة مع زوجتي ، من خلال الاستسلام لعاطفة الحب ، النخ . وكان ذلك يكاد يتجاوز طاقتي ، اذ ان ما كنت أطالب به هو تغيير جذري لأناي الصميم . كنت اخرج من الجلسة التحليلية وكأنني خاطيء مسكين ، كلي ندم وتوبة ، تعمق قلبي أطيب النيات ، ولكن مشبّط العزيمة حتى أعماقي . وكان ما بوصيني به لا يختلف عما كان بوصيني به أي قس ؛ لكن من انى لي ان أستمّد القوة لاتباع توصياته ؟ . وقال المريض انه تناهى الى علمه ان من الضروري معاودة كل شيء من جديد عن طريق تحليل الماضي والتحويل . وما فليل له انه قد حلّل بما فيه الكفاية من هذين المنظورين . وما دام هذا التحليل لم يثبت نجعه ، فلا مفر لي من الاستنتاج بأنه كان غير كافٍ . ومهما يكن من امر ، فان المعالجة اللاحقة بقيت بلا مفعول ، وأنا لا اتردد في الجزم بأنها ما كانت تستأهل بحال من الاحوال تسميتها بأنها «تحليلية نفسية» . واني لأعجب ان يكون الزور يخبون قد تراءى لهم انه من واجبهم ان يلفوا لفقة طويلة ليمروا بفيينا قبل ان يعودوا الى بيرن حيث يعالج ديوا Dubois الاعصبة بعناية كبيرة بواسطة التشجيع المعنوي (٢٢) . ان التناقض المطلق بين هذا الاتجاه الجديد وبين التحليل النفسي يتجلى ايضا في معالجة الكبت الذي لا يكاد يرد له ذكر في كتابات يونغ ؛ وفي الاستخفاف بالحلم الذي يخلط يونغ ، بعد تنكره (على مثال آدلر) لعلم نفس الحلم ، بينه وبين افكار الحلم

٢٢ - أنا أطمح بالطبع اننا لا نستطيع ان ننق على الدوام بما يرويه المرضى ؛ لكني احرص على الجزم القاطع بأن مخبري شخص جدير بالثقة ، وقادر على ان يفهم ويحكم . وقد قدم لي كل تلك المعلومات من دون ان اطلبها منه ، وأنا أستخدم هنا ما أثبتني به من دون ان استحصل على اذنه ، لانني لا ازم ان التقنية التحليلية النفسية يمكن ان نطمح الى حماية السر المهني .

الكامنة ؛ وفي انعدام القدرة التام على فهم الاشعور، وبالاختصار، بصدد جميع مسائل التحليل النفسي الاساسية . وحين نسمع يونغ يجزم ان عقدة حب المحارم ليس لها اكثر من قيمة **وهو** وليس لها اي وجود **فعلي** ، وان المتوحش لا يشعر بالانجذاب الى والدته العجوز او الى جدته ، بل يفضل امرأة شابة وجميلة ، نجدنا ميالين الى الاقرار ، كيما نفسر التناقض الظاهر بين نظرة يونغ وبين التحليل النفسي ، بأن كلمة «الرمز» وعبرة «اي وجود فعلي» انما تعنيان ما يشار اليه في التحليل النفسي باسم «الوجود اللاواعي» ، آخذين بعين الاعتبار التظاهرات والمفاعيل المرضية التي يعبر بها هذا «الوجود اللاواعي» عن نفسه .

واذا ما تذكرنا ان الحلم يشتمل ايضا على عناصر اخرى غير الافكار الكامنة التي يمارس عمله عليها ، فلن تأخذنا الدهشة البتة اذ نلاحظ ان المرضى يحلمون بأشياء حشيت بها ادفتهم اثناء المعالجة من اشباه «المهمة الحيوية» و«الوجود في الاعلى» و«الوجود في الاسفل» . ولا جدال في انه يمكن توجيه احلام الافراد الخاضعين للتحليل ، مثلما يمكن التأثير على الاحلام بتنبيهات اختبارية . وبوسعنا ان نتحكم بحسب رغبتنا بجزء من المواد التي يتألف منها الحلم ؛ لكننا لا نفير شيئا ، بعملنا هذا ، لا في طبيعة الحلم ولا في اواليته . وانا لا اعتقد ان الاحلام المسماة بـ «السرية» (٢٢) تحدث خارج نطاق التحليل . بل لو حللنا على العكس احلاما حدثت قبل المعالجة ، ولو محصنا ما يضيفه العالم الى ما اوحى به اليه اثناء المعالجة ، ولو امكننا اخيرا ان نمتنع عن فرض مهام جديدة عليه ، للاحظنا لا محالة ان الحلم ابعد ما يكون عن محاولة تقديم حلول للمهمة الحيوية . فالحلم ما هو الا شكل من اشكال الفكر ؛ ولا سبيل الى فهم هذا الشكل البتة اذا لم

نأخذ بعين الاعتبار سوى مضمون الافكار ؛ اذ ينبغي ان نأخذ في حسابنا ايضا العمل الذي يتم انجازه في الحلم .

ليس من العسير ان ندحض بواسطة الوقائع تأويل يونغ الخاطئ للتحليل النفسي ومواقفه المعارضة له . فكل تحليل ، اذا ما اجري وفق الاصول ، وعلى الاخص كل تحليل يجري على طفل ، لا بد ان يعزز القناعات التي عليها يركز التحليل النفسي وان يميظ اللثام عن كل تهافت التأويلات الجديدة التي على اساسها شاد كل من أدلر ويونغ مذهبهما . ولقد مارس يونغ بنفسه ونشر ، قبل ارتداده ، تحليلا لطفل . فهل علينا ان نتنظر ان يعطينا عن هذا التحليل تأويلا جديدا مبنيا (بحسب تعبير أدلر) على «تصور تركيبى جديد للوقائع» ؟

ان الرأي القائل ان التمثيل الجنسي للافكار «العليا» فسي الحلم وفي العصاب لا يعدو ان يكون وسيلة تعبيرية قديمة اكل الدهر عليها وشرب يتنافى ، بطبيعة الحال ، مع كون هذه العقد الجنسية تجلى ، في الاعصبة ، بصفتها حاملة لكميات من الليبدو جرى سحبها من الحياة الواقعية . ولو كان الامر لا يعدو ان يكون رطانة جنسية ، لما نجم عنه اي تغيير في اقتصاد الليبدو . ولقد كان يونغ نفسه ما يزال يوافق على ذلك في كتابه *Darstellung Der Psychoanalytischen theorie* (٢٤)، الذي يصوغ فيه القاعدة العلاجية التي تنص على ان الشحنة الليبيدية يجب ان تسحب من تلك العقد . لكن هذه النتيجة لن نصل اليها ابدا فيما لو اشحنا عن العقد وجعلنا كل توجهنا صوب التصعيد : وانما علينا ان نولي العقد كامل عنايتنا وان نجعلها واعية تماما . وأول واقع ينبغي على المريض ان يأخذه في حسابه هو مرضه بالذات . والطبيب الذي سيركز جهده على صرفه عن هذه المهمة

سيثبت عجزه عن مساعدة المريض على قهر مقاوماته او سيبرهن على تراجعته القهقري امام النتائج المحتملة لهذا العمل .

ختاما سأقول ان تحليل يونغ النفسي يشبه سكين ليشتنبرغ المشهورة : فبعد ان غير المقيض وبدل النصل ، يريدنا ان نقتنع بأن بحوزته الاداة عينها ، وذلك ما دامت تحمل اسم الاداة القديمة .

اني اعتقد ، على العكس ، انني بينت ان المذهب الجديد ينطوي على هجران للتحليل وعلى انفصال عنه . وارتداد كهذا من شأنه ان يوحى الى بعضهم بمخاوف على مستقبل التحليل النفسي، على اعتبار ان المعنيين اشخاص لعبوا دورا كبيرا للغاية فسيحركتنا . لكني انا لا اشاطر المتخوفين تخوفهم هذا .



ان البشر اقوياء ، ما داموا يدافعون عن افكار قوية ؛ ويمسكون بحكم العاجزين متى ما ارادوا الوقوف في وجهها . ولسوف يتمكن التحليل النفسي من تحمل هذه الخسارة ، ومن العثور على انصار جدد للتعويض عنها . وسأنهي سطورى بأن اتمنى رحلة ميمونة في الاعالي لاولئك الذين لم يتحملوا ، على المدى الطويل ، الاقامة في عالم التحليل النفسي ما تحت الارض . ورجاؤنا ان يتمكن الآخرون من انهاء عملهم بنجاح في الطبقات العميقة من هذا العالم .

هَذَا الْكِتَابُ

ما الشروط التاريخية والعلمية التي تحكمّت بولادة التحليل النفسي؟ ما المقاومات التي واجهته؟ ما الصراعات والنضالات التي خاضها؟ وما الانتصارات والهزائم التي أحرزها أو مُني بها؟ وقبل كل شيء ، ما الانشقاقات التي حدثت في صفوفه؟

إن هذا النص ، الذي كتبه فرويد سنة ١٩١٤ ، لا يؤرّخ للتحليل النفسي فحسب ، بل يحدّد ما يُميزه عن أخطر انشقاكين تفرعا من صلبه : انشقاق آدلر بنظريته عن علم النفس الفردي ، وانشقاق يونغ بنظريته عن اللاشعور الجمعي .

ومن خلال ردود فرويد النقدية على اطروحات ورثته المنشقين تتحدد معالم مناظرة كبرى : هل التحليل النفسي منهج أم مذهب ؟

كتاب - مرجع لطالب الاختصاص ، كما للقارئ العام .